قواعد في العقيدة

من كلام الإمام مالك

لفضيلة الشيخ

الصغير بن عمار

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبرك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

إذاً نبدأ بإذن الله تعالى في التعليق على اعتقاد إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة تسعٍ وسبعين ومئة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذه العقيدة ليست عقيدة كتبها لمن مالك وإنما انتقاها بعض المعاصرين جزاه الله خيراً من كتب متفرقة بعضها للمالكية، وبعضها لغيرهم وإنما ثبتت عن الإمام مالك رحمه الله تعالى بالإسناد المتصل إليه فهي مجموعة أو عبارة عن أقوال منتقات رُتبت ترتيباً حسناً كما سيظهر إن شاء الله تعالى.

وجملة ما فيها إنما هي جُمل متفرقة في باب الاعتقاد تصلح أن تكون قواعد في باب الاعتقاد منتقاة من الكلام الإمام مالك أحسن من كلمة عقيدة، وإنما هي قواعد منتقاة في باب الاعتقاد.

والإمام مالك رحمه الله تعالى كلماته جمعها بعض أهل العلم من المعاصرين كلمات تربوية عظيمة في باب السنة كلامه حسن سيأتي، في باب العلم لابن عبد البر في كتابه الجامع ذكر جملة حسنة من الكلام الذي ينسب للإمام مالك رحمه الله تعالى في هذا الباب، في باب السلوك، في باب الرؤية، في باب التعامل مع الناس وهكذا ومن أحسن من جمعها أيضاً القاضي عياض الفاسي اليحصبي المالكي رحمه الله في كتابه ترتيب المدارك في تراجم أصحاب الإمام مالك رحمه الله.

هذا الكتاب جليل القدر فيه من المتفرقات ومن الفوائد ما لا يوجد في غير ذلك الكتاب الذي لا ينبغي أن يتأخر عنه مالكي، فإن عجز أحدكم على أن يقتني الكتاب ورقياً لغلاء ثمنه إذ هو في مجلدات ثمان على أحد الطبعات فلا يحرم نفسه بأن يطالع هذا الكتاب إلكترونياً كتاب مصور موجود على الشبكة والأحسن أن يجمع له مالاً وأن يقتني هذا الكتاب ويجعله عمدة له سيما في ترجمة الإمام مالك رحمه الله تعالى وتتبع أقواله.

ولهذا لا يكاد يخلوا باب من أبواب العلم إلا وتجد العلماء يستدلون بأقوال للإمام مالك، فمثلاً في باب الرؤية قال الإمام مالك رحمه الله تعالى قولة صارت كالميزان في هذه الأمة، لما جاءه واحد يريد أن يفسر الرؤيا، ويسأل الرؤيا، ويتسرع في باب الرؤيا قال له الإمام مالك رحمه الله: أبالنبوة يُلعب؟. وهذا فقه كبير جدا لأن النبي ﷺ

ذكر أن الرؤية الصالحة جزء من ستٍ وأربعين، وعلى أحد الروايات جزء من أجزاء النبوة.

فقولة الإمام مالك: أبالنبوة يُلعب؟. فيه ما فيه من العلم ولما رأى من لا يجد في الدين قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: العب بكل شيء إلا بالدين. يعني العب وامزح بما شئت وإياك أن تمزح بالدين، ذكر هذا القاضي عياض في الترتيب، وفي السلوك كذلك وغير ذلك فهو إمام في الدين، الناس تعلم الإمام مالك في الفقه، غير صحيح هذا الفقه برع فيه، والحديث برع فيه.

لكن كلمات الإمام مالك التربوية عظيمة جداً، وكان له من العقل الوافر وهضم النفس، وشفوف النظر ما لا يوجد عند غيره رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا ظاهر في طلابه عند من تتبع طلاب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يجد فيهم محمد بن إدريس الشافعي الذي لو قُسم عقله على الناس الآن جميعاً لوسعهم ويسع غيرهم، وابن وهب ويحيى بن يحيى الليثي وغيرهم من طلاب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، الذين عُرفوا بالعقل قبل العلم.

والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى تميز بالبركة التي أنزلها الله جل وعلا في طلابه وإلا هو قرين الليث بن سعد في العلم والمكانة بل هم أقران والأقران ما هو تعريف القرين في العلم هو من شاركك في السن والطلب، يعني أخذوا على نفس الطبقة من المشايخ وفي السن متقاربان، غير أن الليث بن سعد ضيعه طلابه، والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ حافظ علمَه طلابُه.

ولهذا روايات الموطأ لا تحصى كثرة، طبعاً من أشهرها يحيى بن يحيى الليثي لكن الروايات كثيرة بل يروي عنه بعض أئمة الأحناف كمحمد بن الحسن الشيباني راوي الموطأ وهو من صاحب أبي حنيف، فالإمام مالك رحمه الله تعالى كلامه درر في باب العلم إجمالاً لكن اليوم في هذا الدرس سنتكلم على هذه الأقوال التي جُمعت له في باب السنة، وفي باب الاعتقاد.

وإذا قلتُ في باب السنة، وفي باب الاعتقاد فأنا أفرق بينهما ولا يعني هذا أن الاعتقاد غير السنة، والسنة غير الاعتقاد، أفرق بينهما من باب تغيير العبارة وإلا السنة لها إطلاقات منها الاعتقاد، ولهذا تُطلق كتب الاعتقاد يُطلق عليها كتب السنة السنة للالكائي، والسنة للخلال، وأصول السنة لابن أبي زمانين، وشرح السنة للمزني، وصريح السنة للطبري، وغير ذلك مما لا يخفى على طلاب العلم.

لماذا قالوا كتب الاعتقاد هي السنة؟ لأنهم ألفوا في اعتقاد أهل السنة الذي خالفوا فيه أهل البدعة، فدخل في كتبهم التي كُتبت باسم السنة كل عقيدة تنسب إلى أهل الحديث والأثر، وتُطلق السنة في باب أصول الفقه ويُراد بها المستحب وفي الفقه كذلك، وفي الحديث كل ما جاء عن النبي ﷺ ولو في وصف خَلْقي أو خُلُقي وغير ذلك من الإطلاقات التي تختلف باعتبار المجال الذي تُطلق فيه لفظة السنة.

لكن في هذا التعليق إذا قال الإمام مالك السنة المقصود بها ما يقابل البدعة أذكر لكم هذا لأن كلمة السنة ستتكرر، فالإمام مالك يريد السنة التي تقابل البدعة فيدخل فيها كل شيء يُخالف فيه أهل الحق أهل الباطل.

من هم أهل السنة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين أما بعد: يقول الإمام المبجل إمام دار الهجرة ونجم السنة أبو عبد الله مالك بن أنس رحمه الله:

[أهل السنة هم الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي، ولا رافضي، ولا قدري، والسنة ما لا اسم له غير السنة قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ الأنعام: ١٥٣]

إذاً من الأقوال التي انُتقيت في كلام الإمام مالك رحمه الله تعالى في باب العقيدة هاتان القولتان، وحاصل هاتين القولتين أن أهل السنة والجماعة لا يعرفون باسم غير السنة والجماعة، سنة لتمسكهم بما كان عليه النبي ﷺ والجماعة لأنهم اجتمعوا عليها ولهذا اقترنت السنة بالجماعة، واقترنت البدعة بالفرقة، ودليل ذلك ما ذكر هنا من آية الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

فالصراط المستقيم واحد قال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأنعام: ١٥٣ فلما ذكر البدعة ذكر سبلاً ولم يذكر سبيلاً لأن الحق يجمع والباطل يفرق.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ الأنعام: ١٥٣ ولهذا قال مجاهد رحمه الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأنعام: ١٥٣ قال: هي البدع والشبهة.

إذاً كلام الإمام مالك رحمه الله تعالى يبين أن أهل السنة شعارهم السنة بخلاف الجهمية ينتسبون إلى الجهم بن صفوان، والقدرية إلى مذهب القدر، والرافضية إلى مذهب الرفض، والمعتزلة إلى اعتزالهم مجلس الحسن البصري، والأشاعرة إلى أبي الحسن الأشعري، والماتريدية أبي منصور الماتريدي، إلا أهل الحديث لا ينتسبون لأحد إلا للحديث، والحديث كلام النبي ﷺ.

ولهذا يقول أهل العلم أن المنهاج الذي عليه أهل الحق هو الكتاب والسنة وهذا هو الأصل ومن انتسب إلى الأصل، لا يحتاج إلى أن ينتسب بعده إلى فرع، فإن قال قائل: ألا تنتسبون إلى السلف؟. يقال الانتساب إلى السلف نسبة إلى السنة لأن انتسابنا إلى السلف ليس انتسابا إلى أشخاص وأفراد معينين وإنما انتساب إلى عصمة والعصمة هذه عامة وهي أن هؤلاء القوم هؤلاء القرون قرون مفضلة جاء ذكرهم في سنة النبي ﷺ إذ شهد لهم بالخيرية،

فشهادة النبي ﷺ لهم بالخيرية يدل على عصمة المنهج الذي كانوا عليه ولهذا لما سُئل ابن مسعود عن الجماعة قال: هم السواد الأعظم. الآن لا تستطيع تقول هم السواد الأعظم لا يمكن، إذاً السواد الأعظم في عصرهم لأن السنة كانت طاغية ولهذا لما سُئل بعض أهل العلم عن شدة بعض السلف في باب السنة وأنه يقول من رأيتَ فلاناً مع فلان فاشهدوا عليه بكذا، ومن خالف كذا فهو كذا، ومن استمع إلى مبتدع فقد خلع ربقة الإسلام وغير ذلك من الأثار هل يمكن لنا أن نطبق هذا في هذا العصر؟ قال: لا. لماذا ـ وهذا سئل عنه الشيخ ابن باز رحمه الله ـ قال: لأن السنة كانت في عصرهم طاغية فاكتُفي بالبيان الإجمالي الظاهر عن البيان التفصيلي.

أما في هذا العصر السنة غريبة فلا تستطيع أن تكتفي بالبيان الإجمالي ولا بد من البيان التفصيلي ولهذا هاجروا أقواماً بدون تبيين للحجة، لأن السنة ظاهرة كمعرفة الإسلام في بلد الإسلام أمر يعلمه الكل، معرفة الإسلام في بلد الكفر أقل وبلد الكفر تتفاضل بين بلد الكفر التي فيها مسلمون، وبلد الكفر التي ليس فيها مسلمون.

أنا ذهبت إلى بعض أنحاء العالم في البرازيل، والأمازون وجدتُ مسجداً لكن إذا دخلت إلى أعماق تلك الطبيعة لا تجد من يسبح الله تعالى أما المدن الكبرى فيها مساجد إذاً من يقول أن الانتساب للسلف خارج عن هذا، غَلِطَ.

وإنما نقول بأن الانتساب إلى السلف إنما هو انتساب لعصمة جاءت النصوص بالشهادة بها والانتساب للسلف شرف ولهذا ذكر شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله الإجماع على صحة الانتساب للسلف ونحن إذا انتسبنا للسلف ننتسب إلى الصحابة فمن جاء بعدهم كالإمام مالك، والإمام أحمد والشافعي وغير ذلك من الأئمة.

إذاً أهل السنة لا يُعرفون إلا باسم السنة وأنت تأمل في هذا العصر من الجماعات التي تشرذمت وتفرقت تجد أن نسبتها وولاءها على غير السنة، ولهذا تجد الواحد منهم يستمع لأوامر سيده وإن خالفت السنة، وإنما السني لا يمكن أن يقبل بها فإذا رأيت في أهل السنة والجماعة من صار على هذه الطريقة اعلم أن الخلط قد دخل عليه.

أما السنة الصافية التي لم يدخلها دخل ودغل فإنما أصحابها لا ينتسبون إلا إلى رسول الله ﷺ ويفهمون الدين بفهم الأئمة الذين شهد لهم الله، وشهد لهم رسوله ﷺ بالسلام.

حتى لا يأتينا مستدرك يقول أنتم تقولون أنتم تنتسبون إلى السلف ثم لو جاءنا واحد ـ أنا أجادلكم الآن ـ يقول السلفية الآن صارت أنواعاً وبعضهم ينسبها للجهاد وبعضهم ينسبها للسياسة، يقال هذا غلط لأن هذه النسبة نسبة تناقضية لا يمكن، لأنه لا يمكن أن تُجزئ السلفية إلى علمية، وجهادية، وسياسية.

لو أن من السلفيين من انبرا لتعلم الجير، وطلي الحيطان، ماذا نقول؟ سلفية جيرية؟ هل هذا معقول؟ غير معقول، إذاً هذه تقسيمات ما أنزل الله بها من السلطان وإنما نقول أن الانتساب للسلف يغني عن هذه التشرذمات.

مصادر التلقي

[والحكم الذي يحكم به بين الناس حكمان: ما في كتاب الله، أو أحكمته السنة فذلك الحكم الواجب وذلك الصواب، والحكم الذي يجتهد فيه العالم برأيه فلعله يوفق، والثالث مُتِكلف فما أحراه أن لا يوفق، ومن أراد النجاة فعليه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ والسنة سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح أولها].

إذاً بعدها انتقل إلى الكلام على مصادر التلقي وهذا الباب يعتنون به أهل السنة والجماعة لأن السبب الذي هلك به من هلك من أهل البدع أنهم انحرفوا في باب التلقي، أصولهم أُخذت من مشرب غير سائغ، من مشرب غير صالح وإذا كان المشرب سيئاً لا تعجب من الآثار بعدها، لأن العين فاسدة فما تفرع عنها سيكون فاسداً، فهم بنوا أصولهم ومذاهبهم على أصول فاسد.

من هذه الأصول الفاسدة تقديم العقل على النقل، تقديم الرأي على الأثر تقديم النظر على الأثر، رد نصوص الآحاد وغير ذلك من القواعد، تقديم كلام فلاسفة اليونان عن نصوص السنة والقرآن، وهذا الواقع الذي كانوا عليه فيقولون الحق ما شهد به عقلي، وأما إذا خالف النص، فيقول النص لا بد أن يصدقه شاهدان يعني لا

بد لهذا النص أن يصدقه شاهدان، أما العقل يُسلم له من أول وهلة ومن هنا دخل الانحراف.

فهنا كلام للإمام مالك رحمه الله عظيم فذكر أن الحكم الذي يحكم به بين الناس حكمان:

الأول: ما جاء في النص كتاب وسنة وقولنا كتاب مسلم له من جهة الثبوت لا يختلف رجلان في حرف من القرآن، السنة دخلها ما دخلها ولهذا هنا الإمام مالك قال السنة، لكن نحن الآن نقول السنة الصحيحة، لأن السنة دخلها الضعيف والموضوع وغير ذلك ولهذا يقول ابن أبي داود في أول الحائية:

تمسك بحبل الله واتبع الهدى ... ولا تكن بدعياً لعلك تفلح
ودن بكتاب الله والسنن التي ... أتت عن رسول الله تنجح وتربح

لم يقل في كتاب الله أتى، لأن الكتاب متواتر، وشروط التواتر معلومة في كتب القراءات.

ولهذا يقول ابن الجزري في طيبة النشر:

فكل موافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل شرط أثبت ... شذوذه لو أنه في السبعة

إذن هذه الشروط الثلاثة التي تثبت بها التواتر القراءات، غير التواتر المعروف في السنة أن يرويه جماعة عن جماعة، ويكون أصل ذلك راجعاً إلى شيء مسموع أو مبصر أو شيء حسي هذا التواتر في السنة، وأما التواتر القرآن فشروطه التي ذكرتها لكم من جهة الرسم، ومن جهة صحة الإسناد، ومن جهة موافقة النحو ولو من وجه عليه القراءات المعروفة التي لا تخفى عليكم السبعة وتتمتها بالعشرة.

أما السنة فلا بد من إثبات صحة السنة لأن السنة دخلها ما دخلها ثم قال: فذلك الحكم الواجب وذلك الصواب، لأن العصمة في الكتاب والسنة ثم قال: والحكم الذي يجتهد فيه العالم برأيه. وهذا الرأي قد يوفق إذا كان موافقاً للكتاب والسنة وقد لا يوفق العالم وهذا هو الذي لا ينبغي أن يُتبع فيه ولهذا قال: وثالث مُتكلف فما أحراه أن لا يُوفق.

إذاً عندنا كتاب وسنة وهذا الحق قطعاً ما الذي يبقى؟ يبقى آراء الرجال والكلام هنا على العالم الذي له أهلية الاجتهاد، أما صاحب الجهل فهذا مخطئ وإن أصاب لأنه تكلم في دين الله بغير علم، إذاً عندنا هنا صاحب الاجتهاد إما أن يصيب الحق فنحمد الله تعالى ويُتبع لا باعتبار قوله وإنما باعتبار موافقته للحق، والثاني أن لا يوفق للصواب وأن يكون هذا مُتكلفاً إما رأياً مذموماً، وإما رأياً غير مذموم لكن صاحبه أخطأ وإن كانت عبارة الإمام مالك رحمه الله قال: مُتكلف. يدل وكأنه يذم صاحب هذا الرأي الذي ناقض به النص.

ثم ذكر رحمه الله قولة صارت كالمثل أن من أراد النجاة فعليه بالكتاب والسنة ثم قال: والسنة سفينة نوح من ركبها نجاة ومن تخلف عنها غرق. وهذه قولة صارت كالمثل سفينة نوح متى جاءت؟ لما أغرق الأرض الطوفان، هذا الطوفان الآن طوفان البدع والباطل أغرق الأرض جميعاً لما كان: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ القمر: ١٢ من الذي نجا؟ من كان مع نوح: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ القمر: ١٣ - ١٤.

إذاً سفينة نوح هي التي نجا فيها من نجا، السنة في هذا الزمان وفي زمن الإمام مالك إلى أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها، كل من كان فيها ينجو وفي هذا عدة إشارات:

الإشارة الأولى: أن الأرض مُلِئت طوفاناً بالبدعة.

الإشارة الثانية: أن الحق لا يتعدد بهذا الاعتبار لأنها سفينة واحدة، لا يأتي واحد يقول سفينتك، وسفينتي، وسفينة غيرك، لا، حزب واحدة.

الإشارة الثالثة: هذه السفينة لها قائد وهو نوح، ونوح نبي إذاً لا بد أن ترجع القيادة إلى النبوة لازم لأن إذا رُفعت النبوة من الأرض هلك الناس إما نبي أو آثار النبي وإلا أُغرق الناس في الغواية والضلال.

ونوح عليه السلام لما عارضه ابنه بعقله هلك ابنه ونجا نوح عليه السلام قال: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ هود: ٤٢ قال: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ

أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ هود: ٤٣ إذاً ابن نوح عارض الوحي بعقله لأن نوح قال له: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ هود: ٤٣ أي: من رحم الله سبحانه بأن جعله في السفينة، إذاً هذه السفينة هي الوحي من عارضها برأيه هلك كما عارضها ابن نوح فهلك.

فقولة الإمام مالك رحمه الله تعالى: السنة سفينة نوح. فيه من المعاني ما لو كُتبت فيه رسالة لما كان عليها كبيراً.

قال بعدها: ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح أولها. وهذه الكلمة أيضاً صارت كالمثل من كلام الإمام مالك رحمه الله، لأن السلف الأوائل صلحوا بماذا؟ بالدين والاستقامة، ومن طلب النجاة في غير الدين والاستقامة ضل لا محالة فالإمام مالك بيّن أن كما نجا الأولون، فلن ينجو المتأخرون إلا بهذا الأمر، وهذا هو مفهوم الرجوع إلى مذهب السلف.

قولة الإمام مالك تُلخص، لما نقول الرجوع إلى مكان عليه السلف الصالح هو ما قال الإمام مالك أننا إذا أردنا أن تصلح أحوالنا فلا بد أن نرجع إلى الأمر الذي أصلحهم هم ونلزم ذلك الأمر وحينها سيأتي الصلاح، وكلما ابتعدنا من الأمر الذي صلحوا به كلما جاءنا الفساد والناس في ذلك بين مستقل ومستكثر ولهذا كلما ابتعدنا عن نور الوحي كلما ظهرت البدع وانتشر الباطل.

فكلما اقتبست من ذلك النور كلما كنت مستنيراً في طريقك كلما ابتعدت من ذلك النور كلما حل مكان ذلك النور ظلمة، والناس فيها بين مستقل ومستكثر.

التحذير من الشبهات

[ولو لقي اللهَ رجلٌ بملء الأرض ذنوباً ثم لقي الله بالسنة لكان في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً]

هنا يحذر رحمه الله من الشبهات لأنه قال: بأن المرء لو لقي الله جل وعلا بملء الأرض ذنوباً لكنه لقيه بالسنة أي بالاعتقاد الصحيح لكان في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، تتمة هذا الكلام لو لقيه بعبادات وطاعات كثيرة غير أنه لقيه بشيء من الهوى والشبهة، ومرض القلب كان مع الهالكين ولم يكن مع الناجين لأن أمراض القلوب يا إخوة نوعان:

الأول: مرض شهوة.

الثاني: مرض شبهة.

وقد أطلق الله جل وعلا لفظ المرض عليهما قال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٢ هذا مرض شهوة.

ومرض الشبهة يقول الله: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ البقرة: ١٠ ويقول الله: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ المدثر: ٣١ والمقصود به هنا مرض الشبهة.

من سلم من هذين المرضين كان سليماً قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩ قال أهل العلم: سليم من مرضي الشبهة والشهوة.

ومرض الشهوة دواؤه الصبر، ومرض الشبهة دواؤه اليقين يقول الله جل في علاه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ السجدة: ٢٤ قال السلف: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. لأنه بالصبر تُستدفع الشهوات وباليقين تُستدفع الشبهات.

ولهذا إذا تأملت أمراض الأمم قبلنا وجدت أن مرض النصارى غالباً من جهة الشهوات فكانوا ضالين، ومرض اليهود إنما كان من جهة الشبهات فكانوا مغضوباً عليهم باعتبار الأصل وإلا الآن مغضوب على الجميع لأن الجميع قد اطلع على الحق وخالفه، ولهذا قال شيخ الإسلام بن تيمية في كلام حسن له قال: من كان فيه مرض شهوة صدق بالباطل فصار إلى الشطح، ومن كان فيه مرض شبهة كذب بالحق فصار إلى الشرك. وهذا كلام متين جداً.

مرض الشبهة يضر في اليقين، في الاعتقاد ولهذا قال أهل العلم: جنس أمراض الشبهات أشد وأعظم من جنس أمراض الشهوات. والتعبير بالجنس فيه ما فيه التنبيه لماذا؟ لأنك إذا أطلقت الكلام يأتيك رجل غبي أو متغابٍ يقول أتساوي بين الذي ذكر الله في جماعة بصوت واحد مع الذي قتل مئة نفس؟ هذا كلام لا يرد علينا

نحن نقول جنس البدع أشد من جنس المعاصي والكبار أما عند التفصيل هذا له مقام آخر.

إذاً هنا الإمام مالك رحمه الله أصل لهذا الباب وهذا هو الذي قال فيه السلف: فاسق أهل السنة أعظم عند الله جل وعلا من عابد أهل البدعة. وهذا كثير لكن كثير من الشباب الآن ومن قبل ممن غلط في فهم هذا الكلام هذا الكلام فرضيٌ ليس فيه تشجيع على أن تكون فاسقاً لأن الفاسق موعود بالنار، لكن هم يريدون أن يبينوا أن أهل البدع إنما يتعبون في غير طاعة، وينطبق عليه من وجه قول الله جل وعلا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ ﴾ الغاشية: ٢ - ٤ لأنهم يتعبون ولكنهم منسلخون من الدين.

ولهذا قال ابن القيم:

والله ما خوفي الذنوب فإنها لعلى سبيل العفو والغفران

لكن ما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي والقرآن

يعني ابن القيم يقول لا أخاف الذنوب، الذنوب محلها الغفران لكن أخشى أن ينسلخ وأن تنطمس البصيرة فترى الحق باطلاً والباطل حقاً وهذا مرض الشبهة الذي يصعب طبه، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله احتجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يتركها**» وهذا حسنه جماعة من أهل العلم، وآثار السلف في هذا كثيرة.

فهم لا يقولون هذا تشجيعاً لنا حتى نترك الطاعة، غير صحيح لأن الذي قال هذا من؟ الإمام مالك وهو من أكثر الناس عبادة وزهداً، وقاله الإمام أحمد وهو من أكثر الناس عبادة وزهداً حتى حُكي أنه كان يصلي في اليوم ألف ركعة، وحُكي هذا عن الشافعي الذي كان يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، بل كان يختم في رمضان ختمة في الليل وختمة في النهار.

إياك أن تظن بأن الذين قالوا هذا كانوا مقصرين، أو كانوا يدعون الناس إلى التقصير في هذا الباب، لكن هم يريدون أن يبينوا أمرين:

الأمر الأول: يحذرون أهل البدع الذين قال فيهم السلف كالحسن وابن سيرين وغيرهم: ما ازداد مبتدع صلاة وصيام واجتهاداً إلا ازداد من الله بدعاً.

الأمر الثاني: يريدون أن يبين لك عظمة الاهتداء إلى السنة حتى ذكر ابن أبي الدنيا أن نباشاً ونقله عنه ابن رجب في أهوال القبور، ذكر أن نباشاً تاب فسُئل عن أشد ما رأيت قال: رأيت عامة الذين دفنوا قد حولت وجوههم عن القبلة. هو نباش ينبش القبور يبحث عن الخاتم، وسن الذهب والمال الذي يبقى مع الناس يأخذ هذا وينصرف لسبيله فهو سارق أموال.

فقال: أفتحُ القبر أجد أغلب الناس قد وُجهت وحُولت وجوههم عن القبلة فأرسل إلى بعض الأئمة وهل هو الثوري أو غيره لا يحضرني ذلك الآن، فأشفق ذلك العالم من هذه المقولة فقال له: إني أرى أن هؤلاء هم الذين ماتوا على غير السنة. يعني

الذين حولت وجوههم عن القبلة قال: هم أقوام ماتوا على غير السنة. إذاً هـذا يـدل على أهمية الموت على السنة.

التحذير من اتباع الرأي المذموم ومخالفة السنة

[وقُبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستُكمل فإنما ينبغي أن نتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يُتبع الرأي، فإنه متى اتُبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك فاتبعته فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته أرى هذا لا يتم، ومن خالف السنة فإني أخشى عليه الفتنة وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور: ٦٣].

ذكر هنا كلاماً عظيماً يبين فيه أمرين:

الأمر الأول: أنه يحذر من اتباع الرأي المذموم

الأمر الثاني: يبين عاقبة من خالف السنة.

والرأي المذموم المقصود به الرأي الذي يناقض النص، والرأي رأيان:

الأول: رأي محمود وهو ما كان خادماً للنص.

الثاني: ورأي مذموم وهو ما كان مخالفاً للنص وجرى على غير القواعد العلمية ولهذا يقول ابن القيم عن هؤلاء:

إن قلت قال الله قال رسوله فيصيح جهلاً أين قول فلان

تقول له قال الله قال رسوله يقول وين قول فلان، فبين هنا أن النبي ﷺ مات وقد تم الأمر فينبغي أن نتبع الآثار ولا نتبع الرأي، أي الرأي الذي يناقض مكان عليه النبي ﷺفإنه ما اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى رأياً منه فاتبعته فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته أرى هذا لا يتم.

إذاً هذه حجة عقلية قوية لأن الوحي ثابت منزل من عند الله، آراء الرجال تختلف، سلمت لرأيي وأنا أسلم لرأي غيري، وغيري يسلم لرأي غيره، فلا ينتهي الأمر والناس يحتاجون إلى أن يُردوا إلى عصمة تعصمهم لأن الآراء تختلف نحن في أنفسنا رأينا اليوم يخالف رأينا غداً، ولهذا الشريعة لم تكل دين الله جل وعلا إلى مطلق الآراء بل الله جل وعلا تكفل بحفظ هذا الدين بنفسه قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر٩ بخلاف كتب أهل الكتاب قال: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ المائدة: ٤٤ فلما استحفظوا ذلك الكتاب ضيعوه ونحن تكفل الله بحفظه.

فإن قال قائل: الله تكفل بحفظ القرآن ولم يتكفل بحفظ السنة. يُقال هذا جهد كبير من وجهين:

الوجه الأول: أن العلماء نقلوا الإجماع على أن السنة محفوظة في جملة حفظ القرآن.

الوجه الثاني: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وأن الوسائل لها أحكام المقاصد فلما كانت السنة مفسرة ومبينة للقرآن، فلا يتم حفظ القرآن إلا بحفظ السنة التي تبينه ولهذا كان حفظ السنة تابعاً لحفظ القرآن، ولهذا يقول المعلمي في الأنوار الكاشفة في رده على أبي رية في أكثر من موطن يقول: وحفظ السنة تابع لحفظ القرآن بالاتفاق.

ثم بيّن أن مخالفة السنة سبب للفتنة وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قُصر عنها رسول الله ﷺ وهذه حجة قوية، وسيأتي في باقي كلام الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ما يؤكد هذا المعنى بأن الحق الذي تسبق أنت فيه رسول الله ﷺ لا يمكن أن يكون حقاً.

النبي ﷺ يا إخوة أمَّ الناس في بيت المقدس، أمَّ من؟ الأنبياء جميعاً وصل في السماء إلى مكان لم يصل إليه أحد هذا في السماء، إذاً فضله في الدنيا في الأرض وفضله هذا في السماء، أمته شرفت بالنسبة إليه فصاروا نصف الجنة، أول أمة تُحاسب وأول أمة تدخل الجنة، شفاعته يوم القيامة هي المقام المحمود وهو أول من يستفتح ويدخل الجنة، هذا النبي ستفوقه أنت بفضيلة برأيك وعقلك؟ هذا لا يمكن.

ولهذا من رأيته يجاهر بأنه يمكن أن يهتدي لحق تخلف عنه رسول الله ﷺ فاعلم أن هذا مفتتح ضلالة كبيرة، وسترى فعل الله جل وعلا فيه عاجلاً غير آجل، لأن يا

إخوة النبي ﷺ من تشريف الله تعالى له جعل أن الكافر الذي لا يؤمن بشريعته إذا احترم سنته نال عزاً في الدنيا ليس الآخرة، الآخرة الكافر ليس له فيها نصيب.

أبو طالب هل آمن بالنبي ﷺ إيماناً ينجو به؟ لا، صدق وأقرأ إقراراً، صدق تصديقاً و لم يقر إقراراً يتبعه عمل، لكنه كيف عامل النبي ﷺ و دينه؟ باحترام عظيم هذا الرجل له فضل كبير لا ينكره أحد.

أبو لهب كيف عامل ابن أخيه؟ أبو لهب و أبو طالب كلاهما في النار خالدان فيها واحد في أسوأ العذاب، وواحد في أخف العذاب، لماذا الفرق بينهما؟ لأن هذا احترم النبي ﷺ وسنته ودينه، والآخر لم يحترم النبي ﷺ وسنته ودينه.

نأتي إلى الملوك كتب النبي ﷺ كتاباً وكتابه سنة، للفائدة من عناية العلم بالسيرة ابن طولون له كتاب شرح رسائل النبي ﷺ شرح فيه كل الرسائل التي رسلها النبي ﷺ وهذا باب من التصنيف فريد، ولا أعلم من كتب في هذا إلا ابن طولون رحمه الله كتاب مطبوع بتحقيق الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط رحمه الله تعالى.

النبي ﷺ أرسل إلى هرقل عظيم الروم وأرسل إلى كسراء ملك الفرس كيف عامل كسرى رسالة النبي ﷺ؟ مزقها فمزق الله ملكه إلى يوم الدين لن يعود إليه وهرقل كيف عامل النبي ﷺ ؟ احترمه، لكنه آثار الدنيا على الآخرة، فهلك في نفسه ومات على غير التوحيد وهو خالد في التوحيد لأن النبي قال: «**لم يسلم عدو الله**»

لكن مع هذا أمسك الله تعالى عليه ملكه فعاش مكرماً إلى أن مات أحب الدنيا فنالها كسرى لم ينل لا الدنيا ولا الآخرة.

ولهذا لما جاء أتباع كسرى إلى النبي ﷺ قال: «**اذهبا وعودا فإن ربي قد قتل ربكما البارحة**» فقتله ابنه أو ابنته، إذاً النبي ﷺ يا إخوة حتى الكافر إذا عظم هذا النبي ناله ما ناله من الفضل في الدنيا حتى الكافر، وتأملوا تصديق هذا في حوادث العصر لن تشكوا في هذا طرفة، تأمل حولك تجد، لماذا أنا أذكر لكم هذا؟ حتى تعلموا أنه إذا كان هذا في الكافر فكيف بالمسلم الذي يحبه ويؤمن به، ويصدق به.

إذاً كلام الإمام مالك رحمه الله هنا عظيم ولهذا استدل بقول الله جل وعلا في النور: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور: ٦٣ وهذا وعيد شديد في من خالف السنة، ولهذا بعض المفتونين عندنا من الدكاترة الذين يسمون أنفسهم قرآنيين، وهم كذبون لا هم في القرآن ولا في السنة قالوا السنة وضعها الشافعي.

هل الشافعي هو الذي قال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ النور: ٦ ؟هل الشافعي هو الذي قال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ النور: ٥٤؟ هل الشافعي هو الذي قال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ آل عمران: ٣٢ ؟ هل الشافعي هو الذي قال: «**فعليكم بسنتي**» ولهذا هؤلاء انطمست يا إخوة بصيرتهم، ويخاف العبد على الدين من أمثال

هؤلاء لأن هذه الطبقة يستمع لها الناس، وهذه هي الغربة التي أخبر عنها النبي ﷺ ولن يُنصر الدين بمثل العلم.

أما الجاهل إذا انبرا للرد على هؤلاء فيكون في كلامه فتنة عظيمة ويفسد أكثر مما يصلح، لهذا إذا أردت أن ترد فعليك أن تحكم العلم إحكاماً عظيماً، ولن يحكم العلم ما جعل العلم على هامش حياته، ويريد أن يسير في حياة عادية، إذا أردت العلم تكون حياتك في الهامش، وطريقك هو طريق العلم، غير هذا أنت صاحب ثقافة ولن تكون صاحب علم، هذه خذوها مني، إذا جعلت العلم عن الهامش وتريد أن تسير ستكون مهمشاً في العلم، العكس قد يعطيك العلم وليس بمؤكد أن يعطيك العلم كما أعطيته.

التمسك بالسنة ورد الآراء المذمومة والقياسات

[قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله ﷻ، وقوة على دين الله ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً، والتسليم للسنن لا تُعارض برأي، ولا تُدافع بقياس وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بيّنوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه، ورأوه في الحوادث ولا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو في تأويله].

وهذا من الإمام مالك رحمه الله دعوة إلى التمسك بالسنة ورد الآراء المذمومة والقياسات التي عورضت بها السنة، وأكد هنا على أمر عظيم وهو أن السنة تُفهم بفهم السلف، لأن السنة يفهمها كل واحد على ما يريد، ولهذا القرآن يا إخوة الله جل وعلا ذكر أنه: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ فصلت: ٤٤ وقال فيه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة: ٢ إذاً هو هدى للمتقين وعمى على الضالين والغاوين، وهو قرآن واحد.

والسنة كذلك يفهمها البعض ويريد بها محض الخير، والآخر يفهم السنة على هواه فيخرج من السنة أحكام تناقض أصول الدين لماذا ؟ لأن الله ابتلى بهذه النصوص الناس، خاصة القرآن، هذا في السنة أقل، لأن التفصيل فيها أكثر أما القرآن جعله الله هدى للمتقين وغواية للغاوين، وذلك قال جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ آل عمران: ٧ .

إذاً بيّن هنا أن أصحاب الزيغ في القلب إنما يتعاملون مع النصوص من أجل أمر واحد وهو أنهم يريدوا أن يؤسسوا باب الضلالة والفتنة مع اعتمادهم على القرآن ولهذا ذكر الأئمة أنه ما من مخالف إلا ويجد له في القرآن ما يستدل به ولهذا الخارجي يقول الله يقول: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٢ ويقول الله جل وعلا يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء: ٩٣ .

ويأتيك المرجئ ويقول الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٧٧ ففرق بين الإيمان والعمل الصالح، ويأتيك الجبري يقول الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ الأنفال: ١٧ .

ويأتيك الذي يريد أن يكفر الناس ويقتلهم، ويستدل بآيات، ويأتيك القدري ويستدل بآيات وهكذا.

بل يأتيك الفاسق كما رُوي عن بعضهم أنه كان يقول:

دعِ المساجد للعباد تعمرها ... وسر بنا حانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للذين سكروا ... ولكن قال ويل للمصلينا

أحد يقول ربي لم يقل ويل للساكرين إنما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ الماعون: ٤ ثم يأتي للخمر ويقول قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة: ٩٠ ولم يقل حرموه هذا من الجهل طبعاً إلى غير ذلك من الاستدلالات التي يستدل بها أهل الغواية.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول: جادلوا أصحاب الرأي بالسنن فإن القرآن حمال وجوه. حمال وجهه لماذا؟ لأن الله أراد أن يبتلي به خلقه، فصاحب الهداية يهتدي به، وصاحب الغواية يضل به.

ولهذا هنا بيّن لمن مالك رحمه الله قال: ولا تدفع بقياس وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا ونتبعهم فيما بيّنوا ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث ولا نخرج عن جماعتهم في اختلافهم فيه أو في تأويله.

وهذه دعوة منه رحمه الله إلى التمسك بالإجماع، والإجماع الذي ينضبط هو الإجماع الذي كان عليه السلف الصالح وإلا الاختلاف بعدهم قد كثر والإجماع دليل مستقل باعتبار ذاته وإن كان مرده إلى الكتاب والسنة.

الاجتماع الذي ينضبط هو الذي كان عليه السلف الصالح أما بعده فقد انتشرت الأمة وكثرة الخلاف وأنا لا أقول بأن الإجماع إذا ثبتت شروطه لا يثبت لكن ثبوت شروطه في غير زمانهم صعب لكنه ممكن وقد حُكيت إجماعات بعدهم.

دواء الهوى هو الوحي

[وما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء، ولا قلت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء]

هذا الكلام عظيم جداً، دواء الهوى هو الوحي فإذا كثرت الآثار واتباع السنة قتلت نزعة الناس إلى الأهواء يقول ابن دريد في مقصورته يقول:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

الهوى هوان نُزعت نونه كما قال الأدباء، الهوى يهوي بصاحبه في النار ما هو الهوى؟ أن تأتي للنص وللشرع وتأخذ منه ما يوافق هواك، وترد ما لا تهواه نفسك ولا يوافق هواك هذا الهوى ولهذا أهل البدع سُموا أهل الأهواء باعتبار أنهم يأخذون من الشرع إلا ما يوافق مذهبهم فالآثار هي التي تحارب تلك الأهواء.

ثم قال: ولا قلت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء. الجفاء هو غلظة الطبع وسوء العشرة لماذا إذا قل العلماء كثر الجفاء؟ لأن العلماء هم الذين يؤدبون الناس ويعلمونهم حسن الأدب ولهذا النبي ﷺ قال: «**إن العالم يستغفر له كل شيء حتى النملة في جحرها**» لأن العالم إذا علم الناس الأدب سيعلمهم آدابهم حتى مع الحيوان فينتشر بهذا السلام حتى مع الدواب.

ولهذا الذي كتم علمه تلعنه حتى الدواب قال جل وعلا في البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ البقرة: ١٥٩ - ١٦٠ فتأمل قول الله جل وعلا ﴿ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾ البقرة: ١٥٩ أي: جميع من يلعن يلعنهم، لماذا؟ لأن كما أن صاحب العلم والذي بلغ العلم يستغفر له كل شيء فالذي لم يبلغ العلم أو الحرف في العلم يلعنه كل شيء، فأجر هذا عظيم، وإثم هذا جسيم.

ولهذا هنا قولة الإمام مالك عظيمة قال: ولا قلت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء. وهذا يدل يا إخوة على أن القرية التي ليس فيها علم لا مُقام لكم فيها وكان أبو بكر بن العربي المالكي يرى وجوب الهجرة على البلدة التي ليس فيها علماء اخرج بدينك لا بد أن لا تبقى فيها، لأن المكان الذي ليس فيه علماء عُرضة بأن يدخله كل شيء منها الشرك الأكبر الذي يجعله دار كفر لا دار إيمان، ولهذا قولة الإمام مالك هذه عظيمة وتحتاج شرحاً.

ماذا ينبغي على طالب العلم؟

[وإن حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعا لأثر من مضى قبله]

وهذا تنبيه منه رحمه الله على السمت الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب السنة فصاحب العلم والسنة والأثر لا بد أن يكون ذا وقار، وسكينة، وخشية، الخشية لله والوقار، والسكينة من العلامات التي تكون ظاهرة في سمته وهديه ودله، ولهذا لما رأى بعض الأئمة طلاباً يضحكون بخفة غمزهم ونظر إليهم وانتهرهم وقال: ما ينبغي لطالب حديث أن تكون به خفة.

ولهذا يقول بعض السلف ولعله الثوري يقول: إذا كان ليلي ليل سفيه ونهاري نهار فاسق فماذا فعلت بالعلم؟. حتى قال الجرجاني في قصيدته في تعظيم العلم يقول:

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل كان أسلما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

ولهذا دائماً أقول لكم من منكم أراد العلم فلابد له أن يحرم نفسه من كثير من فضول المباح والخلطة المبالغ فيها، لأن طالب العلم لا ينبغي له أن يُرى مختلطاً

بالناس في كل شيء، في الكرة، وفي الأعراس، وفي المقاهي، وفي الأسواق وفي كل شيء تذهب وتراه، لا يمكن، ويفعل ما يفعله غيره، ولهذا ينبغي لصاحب العلم أن يجمع بين علمه الباطن الذي هو معه كما قال الأئمة قال:

علمي معي أينما يممت فهو معي قلبي حواه لا بطن صندوقي
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي وإن كنت في السوق كان العلم في السوق

يعني علمك تنتقل به بين جنبيك لكن مع هذا العلم ينبغي أن يكون لك وقار عظيم، وأما الذي تكون فيه خفة فهذا لا ينطبق عليه اسم الحديث والسنة وأنت ترى بعض من ينتسب للعلم تراه معظماً إذا كان موافقاً لك، فإذا خالفته رأيت منه من العبارات ومن الخفة، ومن الجهل، ومن التسرع، ومن الانفعال ما تقول ماذا تعلم هذا من العلم والسنة؟ وبعض طلاب العلم سوقي إذا خالفته يوهمك بأنه من الصحابة إذا وافقته وهو في الحقيقة سوقي، لأن عند الانفعال تظهر معادن الرجال أما عند الضحك والسلامة والموافقة الكل يوافقك.

ولهذا ينبغي للعبد أن يكون صاحب سمت إذا تكلم تكلم بعلم، وإذا سكت سكت عن حلم وإلا فلا يتكلم بين الناس حتى يصيح على نفسه بالجهل.

ترك الخصومات

[والعالم يخبر بالسنة ولا يخاصم فإن قُبلت منه وإلا سكت]

فكثرة الخصومات، وكثرة الجدال، وكثرة المراء لا تليق بطالب العلم، والمراء هو الكلام الذي لا يراد به الوصول إلى الحق، والخصومات كذلك من أكثر الخصومة أكثر التنقل كما سيأتي معنا من كلام عمر بن عبد العزيز، فالخصومات مذمومة ادعُ للسنة ولا تخاصم عليه، ادعُ للسنة ولا تكن صاحب جدل، ولا تخاصم كل من خاصمك في السنة، فبعض الناس لا يُكلم أصلاً:

إذا كلمتـــــه فرجـــــت عنـــــه وإن خليتـــــه كمـــــداً يمـــــوت

أنا دائماً أقول للأخوة لا تستمع إلى كل من تكلم، ولا تكلم كل من يستمع ليس كل من تكلم تجلس إليه، وليس كل من يسمع يجلس إليك، وليس كل من جادل تجادله، بعض الحمقى والمغفلين السكوت عنه هو المتعين لأن الكلام مع أمثال هؤلاء والرد على أمثال هؤلاء يزري بك أنت كطالب علم لكن إذا كان لأحدهم أتباع وصار له أنصار فيُرد على ذلك الباطل مع عدم تشهير له فهو أحقر من أن يُشهر به لكن تأخذ ذلك الباطل وترد عليه فإن انتشر في الناس شره فلا بأس من تعيينه.

ولهذا هنا كلامه عظيم العالم يخبر بالسنة ولا يخاصم فإن قُبلت منه وإلا سكت والإمام مالك رحمه الله كما قلت لكم له لفتاتة تربوية رُوي عنه أنه قال لأحد طلابه يوصيه ولعله يحيى بن يحيى ومن العجيب أن يحيى بن يحيى الليثي أدرك الإمام مالك في مرض موته، أدركه قبل، ثم عاد إليه في مرض موته، وهو روى عنه أشهر رواية الموطأ، فهذا يدل على أن العلم ليس بكثرة الأخذ، وإنما العلم بصدق الأخ.

هذا الرجل نقل عن الإمام مالك أمراً عظيماً. مما نقل عنه بعض الوصايا إن ثبتت عنه أن الإمام مالك أوصاه هو أو غيره من طلابه فقال له: أوصيك بثلاث كلمات

الأولى: إياك أن تدخل طعاماً على طعام، وأنصحك أن لا ترفع يدك من الطعام إلا وأنت لازلت تشتهيه. أي لا تأكل حد التخمة وهذا موجود في كلام العرب وأطباء العرب كالحارثة بن كلده وغيره عليه.

الثانية: قال له: اجعل جنتك لا أدري. ومعروف الإمام مالك بقوله لا أعلم هذه طالب العلم إذا عود لسانه عليه يسلم وينجو.

الثالثة: قال: إذا جلست مع قوم فكن أقلهم حديثاً فإن أصابوا كنت مصيباً معهم وإن أخطأوا سلمت من خطئهم.

وهذه مروية عن الإمام المالك رحمه الله ففي كلامه كلام كثير يوصي طالب العلم بلزوم السكوت.

وبعض الطلاب يرى نفسه مجبراً على الكلام في كل موضوع سياسة كان أو اقتصاداً، كل خلاف بين اثنين في العالم يريد أن يتخذ منه موقفاً ثم ابتُلينا بجماعة جهل يجبرون طالب العلم ولو كان مبتدئاً أن يتخذ موقفاً من رجلين مغمورين في مكان مغمور، لا هم أئمة سنة لا يُوالى ويُعادى عليهم ولا شيء، فإن كنت لتعرف حالهم يدعوك لأن تتعلم حالهم وتضيع وقتك ثم تتخذ من هذين موقفاً.

وهذا من الجهل الذي لا أعلم عصراً سُبقت إليه هذه الجهالة أنا لا أعلم في الجهالات التي حُكيت جهالة كهذه بأن تُلزم باتخاذك موقف من أقوام أنت لا تعلمهم وليس رؤوساً في السنة، ولا تُمتحن الأمة بهم أصلاً، هذا الإمام مالك رحمه الله يحذر منه، ادعُ للسنة ولا تخاصم عليها فإن قُبلت وإلا اسكت، فلترمَ بما ترمى لا يضر كذلك إن كنت مع الله جل وعلا صادقاً ولرسوله ﷺ ومتبعاً.

عاقبة المراء وطريقة التعامل مع أهله

[والقرآن هو الإمام فأما هذا المراء فما أدري ما هو، وليس الجدال من الدين في شيء وكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجداله إذاً لا نزال في طلب الدين قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل. والداء العضال التنقل في الدين ومن اتق الله جعل له مخرجا من هذه الأهواء، والمراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغن وإذا جاءك من يجادلك من أهل الأهواء في أمر الدين فقل له أما أنا فعلى بينة من ربي وأما أنت فشاكٌ فاذهب إلى من هو شاك مثلك فخاصمه]

قال: والقرآن هو الإمام فأما هذا المراء فما أدري ما هو. الإمام أي: القائد والذي يجعل القرآن قائداً له لا يزال في خير ومن تنكب عن طريق القرآن لا يزال في شر والله جل وعلا ذكر أن هذا القرآن شفاء لما في الصدور، وأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوى وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن طريق الحق إنما هو في القرآن.

والسنة مفصلة ومبينة لمجمل القرآن ولهذا كان ابن عباس يقول: كل العلوم في القرآن لكن تقاصر عنه أفهام الرجال.

وكان القاضي عياض قد أنشد في كتابه الإلماع وهو كتاب في مصطلح الحديث كان يقول:

العلـــم في أصـــلين لا يغـــدوهما إلا المضـل عـن الصـراط اللاحـب

علـم الكتـاب وعلـم الآثـار التـي قد حُصلت عن تابع عـن صـاحب

فالعلم محصور في علم الكتاب والسنة ومن خرج عنهما فقد تزندق فالقرآن قائد يقود إلى رضوان الله جل وعلا في الدنيا والآخرة.

قال: فأما هذا المراء. والمراء هو الجدال الذي لا يُقصد به الحق الجدل والمجادلة لم يأتِ ذمها في القرآن بإطلاق والله جل وعلا قال: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ العنكبوت: ٤٦ وقال تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ النحل: ١٢٥ لكن في نفس الوقت ذم الخصام قال: ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الزخرف: ٥٨.

والحاصل أن المراء مذموم والمراء هو الجدال الذي لا يُراد به الوصول إلى الحق وإنما يُراد به العلو في الأرض والله جل وعلا ذم العالين والمستعلين عن الخلق

قال جل وعلا: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص: ٨٣ قال هذا في آخر صورة القصص، وفي أول صورة القصص قال جلا وعلا: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا ﴾ القصص: ٤ وقال جل وعلا في آخرها: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا ﴾ القصص: ٨٣ وهذا من المناسبات الموجودة كثيرة في القرآن لكن لمن تدبرها ووعاها.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الواسطية: من تدبر القرآن طالباً للهدى منه أدرك طريق الحق. لكن يكون التدبر بآلة التدبر ليس كل واحد أهل لأن يتدبر الثاني أن يكون حين تدبره طالباً للحق لا طالباً للمراء، والعلو على الخلق.

فالإمام مالك رحمه الله هنا أصل تأصيلاً عظيماً أن القرآن هو القائد الذي يقودك تميل مع قوله أمراً ونهياً، تصديقاً وتكذيباً، فما كذبه القرآن تكذبه، وما صدقه القرآن تصدقه، وما أمر به القرآن تمتثله، وما نهى عنه تنتهي عنه.

قال: وأما هذا المراء فما أدري ما هو. أي: أنه ليس من الدين وإنما جاء هذا من قواعد فلاسفة اليونان تلقفه جهال المسلمين عنهم ظناً منهم أن العلم ذلك، وفي الحقيقة العلم إنما هو كائن في الكتاب والسنة، ولو تدبرت أحوال بعض الناس الآن تجد أنهم بعض الناس إذا سمعوا رجلاً يُكثر الاستشهاد بالقرآن لم يُعظموه كما يُعظم الرجل الذي يكثر الاستشهاد بكتب الأدب والفكر.

وإذا قال الرجل فينا الآن قال الفيلسوف الفلاني، وقرأت في كتاب دوستويفسكي الأديب الروسي المعروف وقرأت في كتاب الأديب فولتير وقرأت في كتاب الروائي الكبير فلان، يقولون هذا رجل عظيم الاطلاع واسع العلم والآخر ينزع الآية تلو الآية، ولا يعظم قدره عند الناس وما كان حديث النبي ﷺ والصحابة إلا الآية والحديث علمهم مبني على هذا.

لكن لا بأس بتوسيع النظر لمن كان عنده آلة قوية بأن يقرأ للأدباء كفاراً كانوا أو مسلمين أو غير ذلك فهذا ربما مما يكون من لطائف العلم وملحه أما الدين يقوم على الأصلين العظيمين القرآن والسنة.

ثم بين أن هذا الجدال ليس من الدين في شيء، أي أنه شيء أجنبي عنه خارج عنه لم يكن عليه السلف، والإمام مالك سلفه من هم؟ الصحابة، الإمام مالك وُلد في عهد قريب من الصحابة ولما كان صغيراً ما زال بعض الصحابة أحياء فقوله لم يكونوا عليه يقصد به عمل أهل المدينة، وعمل أهل المدينة كانوا فيها الصحابة.

والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قوله هنا: ليس الجدال من الدين. هذا يقوله عن نظر في الأدلة ولهذا الله جل وعلا ذم مشركي قريش فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ الزخرف: ٥٨ ولهذا لما خرج النبي ﷺ على الصحابة ووجدهم يتجادلون في القدر غضب غضباً شديداً وكأنما فُقئ في وجهه حب الرمان كان يحمر ﷺ إذا غضب وقال النبي ﷺ ونهاهم وعن ذلك المراء وجاء «**المراء في القرآن كفر**».

لأنك أنت تأتي بآية، وأنا آتي بآية أخرى ليس الهدف الوصول إلى الحق وإنما الوصول إلى علو النفس وزهوها، فيصل بك هذا إلى رد ما قال ذلك وإن كان من القرآن الصريح.

ثم قال: أو كلما جاءنا رجل أجدلُ مِن رجل تركنا ما نزل به جبريلُ على محمد ﷺ إذاً لا نزال في طلب الدين. يعني لا يزال العبد يبحث عن الحقيقة حتى يموت

لماذا؟ لأنه يجادل كل مرة واحد، وكل مرة يقول هذا الحق الذي أريد فإذا غلب مجادل ثاني المجادل الأول قال هذا الحق الذي أريد، فإذا جاء ثالث اتبعه وترك الأول والثاني وهكذا.

لأنه جعل دينه عرضة للخصومات كما قال عمر بن عبد العزيز في القولة بعدها قال: من جعل دينه غرضاً ـ أي مُعرَّضاً ـ للخصومات أكثر التنقل. ثم أكد ذلك الإمام مالك بقوله: والداء العضال التنقل في الدين. داء العضال أنك تعيش وتموت وأنت لا تدري ماذا تعتقد كما جاء ذلك عن كبار المتكلمين حين وفاته يبكي ويقول لا أدري ما أعتقد، ولهذا اشتهرت أقوالهم في أن اللهم دينا أو إيمانا كإيمان العجائز وغير ذلك حتى قال أحد أئمتهم وهو الشهرستاني صاحب الملل والنحل قال:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
وما استفدنا من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ولهذا يقول شيخ الإسلام بن تيمية في آخر فقرات الحموية يقول: وهؤلاء القوم إذا نظرت إليهم بعين الشرع ورأيت إفسادهم للدين صدقت فيهم قول الشافعي محمد بن إدريس رحمه الله لما قال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال وأن يُطاف بهم على العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وانبرا إلى علم الكلام ومن نظر إليهم بعين القدر ـ وهذا فقه عظيم لهذا الرجل مع العلم أن الحموية كتبها وهو في العشرينات من عمره ـ رحمهم وعلم أن هؤلاء القوم إنما أوتوا

علوماً ولم يُؤتوا فهوماً وأوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء، وفي نسخة أُوتوا زكاء ولم يؤتوا ذكاءً.

ثم استدل رحمه الله تعالى بقول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٥ هذا المثل ضربه الله جل وعلا لكلمة التوحيد وهو أساس العقيدة والملة فالعقيدة الصحيحة جذورها ثابتة في الأرض وثمارها في السماء، أي أجرها في الأرض وأجرها في السماء أي أجرها في الدنيا بالثبات على الدين، وأجرها في البرزخ بالثبات على كلمة التوحيد، وأجرها في الجنة بدخول جنات عرضها السموات والأرض.

أما أهل الكلام وأهل البدع وأهل الكفر وأهل الزندقة فإنما هم متذبذبون يؤمنون بالشيء اليوم ويكفرون به غداً، دينهم جعلوه عرضة للخصومات فأكثروا التنقل في الدين ولهذا قال الإمام مالك: الداء العضال هو التنقل في الدين. لأنهم بنوا دينهم على أمر ليس ذي قرار ولهذا قال جل وعلا بعده: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٦ أي: ليس لها ثبات: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٧.

إذاً تأمل هنا مثل كلمة خبيثة كالشرك وما تفرع عنه، كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض لأنها لم تثبت ما لها من قرار، تقلعها بيدك بسهولة، وتُقتلع بسهولة هكذا أهل البدع لا يثبتون على دين، ثم قال جل وعلا: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ إبراهيم: ٢٧ كائن في الدنيا وفي الآخرة قال: ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٧.

ولهذا قرأ النبي ﷺ هذه الآية لما تكلم على فتنة القبر، فالمؤمن الموحد يُثبت في الدنيا ويُثبت في الآخرة من أول المنازل وهو البرزخ إلى ما بعد ذلك، وأما غيره فإنه لا يثبت ولهذا قال السلف: أسرع الناس ردة هم أهل الأهواء. وتأملوا حولكم ستعلمون هذا الأمر فإنهم يتنقلون ويتقلبون.

ثم قال الإمام مالك رحمه الله: ومن اتقى الله جعل له مخرجاً من هذه الأهواء. لماذا قال هذا؟ لأن من ثواب الطاعة الطاعة بعدها، ومن عقاب المعصية المعصية بعدها قال: من اتقى الله وجعل بينه وبين عذاب الله وقاية جعل الله له مخرجاً من هذه الأهواء. فأنت خف ربك وأعظم ما تخاف الله جل وعلا به بأن تبتعد عن تلك البدع وأن تتمسك بالكتاب والسنة فحينها سيوفقك الله جل وعلا.

وهذا داخل تحت الجزاء من جنس العمل والأدلة على قاعدة الجزاء من جنس العمل كما يقول ابن القيم في تهذيب السنة يقول: وهذه القاعدة لها مئة دليل. قلت إذا كان يقصد الإمام بن القيم رحمه الله تعالى مئة دليل تصريحاً نعم، أما تلميحاً وبالمفهوم

فهي أكثر من هذا بكثير بل القرآن كله يدل على قاعدة الجزاء من جنس العام لأن القرآن مبناه على أن ثواب الطاعة الجنة، وثواب المعصية النار وهذا داخل في الجزاء من جنس العام لكن هو يقصد الأدلة الصريحة الظاهرة رحمه الله.

فقوله: أن من اتقى الله جعل له مخرجاً من هذه الأهواء. هذا كما قلت لكم داخل في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١ وأما العكس قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ الصف: ٥ وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ الأنعام: ١١٠ .

بل قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ ﴾ آل عمران: ١٥٥ قال أهل العلم: إن الذين تولوا يوم أحد كان ذلك لما اكتسبوا من ذنوب قبل أحد. لأن أحد يوم ثبات فمن لم يثبت فيه والله جل وعلا عفى عنه، نحن لا نتكلم عنهم بذنب، إنما الله جل وعلا عفا عنهم ورضي الله تعالى عنهم جميعاً، لكن المقصود هنا أن الذنب القديم يؤثر في الشيء جديد لأنه قال جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ ﴾ آل عمران: ١٥٥.

فمن خاف ربه وعلم الله تعالى منه حرصه على الحق وصدقه في طلبه مع سلوك سبيله يحفظه الله جل وعلا من هذه الأهواء.

قال بعدها: والمراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن. المراء كما قلت لكم هو الجدال الذي يراد به العلو في الأرض، هذا حال أهله أن قلوبهم قست لماذا قلوبهم قست؟ لأن هذه القلوب لم تكن مقلبة في سبيل الله، وإنما كانت متقلبة تريد العلو على عباد الله.

ثم قال: ويورث الضغن. أي: الحقد، فإن قال قائل: ما دخل الحقد؟ يقال بلى أكثر ما يجعلك تحقد على المسلمين هو البدعة والهوى، ولهذا قال السلف كما روى ابن بطة في الإبانة قال: ما ابتدع رجل بدعة إلا غل قلبه على المسلمين وسُلبت منه الأمانة لماذا سُلبت منه الأمانة؟ لأن الذي رضي أن يبدل دين الله كيف تأمنه أنت على دنياك؟ فهذا لن يستقيم حاله مع دنياك كما لم يستقم حاله مع دينه.

ولهذا قلت لبعض الإخوة في بعض المجالس ربما في شرح الحائية الأخير قلت لهم الذي يسب الصحابة ـ وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله ـ كيف تأمنه وتكون صاحباً له وهو لم يسلم منه سادات الأولياء، فالذي لم يسلم منه سادات الأولياء لن يسلم منه رجل على هذه الغبراء.

فصاحب البدعة يَغَلُ ويُغَلُ قلبه على المسلمين وتأمل حولك ترَ لأنه سيوالي ويعادي في تلك البدعة فإذا كنت موافقاً له فأنت المعظم المكرم ولو كنت أجهل الناس وأفسق الناس، وإن خالفته سيرميك بالعظائم ولو كنت أعلم الناس وأتقى

الناس، لأن الميزان الذي يزن به موازين الخلق إنما هو ميزان بدعته التي ورثها عن شيخه، بخلاف صاحب الكتاب السنة يحكمه شرعه والشرع لا يأتي إلا بخير.

قال بعدها: وإذا جاءك من يجادلك من أهل الأهواء في أمر الدين أما أنا فعلى بنية من ربي، وأما أنت فشاكٌ فاذهب إلى من هو شاكٌ مثلك فخاصمه. وهذه قاعدة جيدة وهذه ذكرتها لكم في مجلس قبل هذا، لما قلت لكم إن المبتدع يريد أن يأخذ منك اعترافاً بأن المسألة خلافية، لوهن أهل البدع أحياناً، لا يطلب منك أن توافقه على باطله لأن هذا عنده بعيد، وهو يريد أن يتدرج في سلب حلاوة الإيمان منك.

فيأتيك أولاً بأن يجعلك تقر بأن هذه المسألة خلافية ـ طبعاً نحن نتكلم على أصول الدين لا نتكلم على المسائل الفقهية ـ يأتيك ويريد أن يقنع منك وأن تقنع أنت معه وتقتنع بأن المسألة خلافية، لماذا يريد هذا؟ حتى يطمئن هو في طريقه لأنه وحيد في طريقه، أما أنت لست وحيداً في طريقك لأن معك من؟ معك الله ﷻ وهذا الطريق هو الذي كان عليه رسول الله ﷺ وكان عليه الصحابة.

ولهذا لو جاءك واحد يريد منك أن تقرأ بأن مسألة العلو مسألة قد يعتريها الخلاف مثلاً، تقول له لا أشك في هذا هذه فطرة ودين، أنت شاك أما أنا فلست بشاك، يأتيك واحد يأتيك إلى مسائل الشرك الصراح ويقول لك هذه المسألة خلافية وقولي خطأ يحتمل الصواب، وقولك صواب يحتمل الخطأ، كذاب، قولي حق لا يحتمل الخطأ لماذا؟ لأن ليس قولي أنا كشخص هو، هذا دين الله فدين الله جل وعلا

لا يقبل هذا الأخذ والرد ونحن كما قلت لكم نتكلم على أصول الدين التي هي مبانيه العظام أما المسائل الأخرى ففيها كما لا يخف عليكم الخلاف الواضح.

إذاً هذه الجملة تستطيع أن تعنون عليها عاقبة المراء وطريقة التعامل مع أهله

الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص

[والإيمان قول وعمل، ولا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان، والإيمان يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الفتح: ٤ وقال إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ البقرة: ٢٦٠ فطمأنينة قلبه زيادة في إيمانه، الإيمان المعرفة والإقرار والعمل وليس للإيمان منتهى، هو في زيادة أبداً، ولا يقول أحد أنا مؤمن ولكن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقول إنه مستكمل الإيمان وأن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والملائكة المقربين فإنه قول المرجئة، وإني لأذكر بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ البقرة: ١٤٣ يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس ما قالت المرجئة إن الصلاة ليست من الإيمان وقد سماها الله الإيمان].

إذاً انتقل بعدها رحمه الله إلى كلامه في الإيمان، وكلام الإمام مالك رحمه الله في الإيمان هو كلام الأئمة، وكلام السلف فإن السلف مجمعون على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص، وزاد هنا مسألة وهي مسألة الاستثناء في الإيمان.

فلو عنونا على كل هذه النقاط نقول الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص ويجوز الاستثناء فيه والعمل من الإيمان، هذا كل كلام الأشياء لماذا قلنا العمل من

الإيمان مع أننا عرفنا الإيمان بأن العمل فيه؟ لتأكيد هذه المسألة لأن الخلاف إنما هو فيها أصالة، خلافة المرجئة إنما هو في مسألة العمل بالأساس.

قوله: الإيمان قول وعمل ولا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان. هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو قريب من خلافهم في مسألة الإسلام والإيمان فهم يقولون لا إيمان بلا إسلام، ولا إسلام بلا إيمان فإن، الإيمان القلبي لا يصح إلا بشيء من الإسلام العملي، والإسلام العملي لا يصح إلا بعقيدة وإيمان باطن ولا ينفك أحدهم عن الآخر، وإذا أطلق أحدهما عُني به الآخر، وإذا اجتمع فُرق بينهما بما لا يخفى عليكم.

قوله هنا: الإيمان قول وعمل. قول وعمل القلب، وقول وعمل اللسان وعمل الجوارح كل هذا داخل في قول السلف قول وعمل، وأكثر عبارات السلف في تعريف الإيمان هي الإيمان قول وعمل.

قال: ولا إيمان إلا بعمل. وسيدلل بعدها على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ البقرة: ١٤٣ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس فإن الإيمان بلا عمل يا إخوة دعوى كاذبة، الإيمان إذا لم يكن هناك عمل فهو دعوى كاذبة، والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء، والله جل وعلا عاب على من زعم أنه يريد نصرة الله ورسوله ولم يخرج قال: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ التوبة: ٤٦ .

فالذي يقول أنا مؤمن لابد أن يعمل، والكلام على من؟ على عالم بالإيمان عنده متسع للعمل ولا يعمل، هذا الكلام عليه والآخر خارج عن محل النزاع.

قال: ولا عمل إلا بإيمان. ولهذا قد يقال الإيمان قول، ونية، وعمل، وسنة فالإيمان بلا عمل كفر، وبلا نية نفاق، وبلا سنة بدعة، والبدعة في النار، هذه العبارة موجودة في كلام المتقدمين وهي التي قالها ابن أبي زيد أبو محمد القيرواني رحمه الله في مقدمة الرسالة، الإيمان قول، وعمل، ونية.

فالإيمان بلا عمل كفر، لا يصح دين العبد بلا عمل، وبلا نية نفاق، المنافق قالب موجود لكن لا حقيقة له، وبلا سنة بدعة، والبدعة إنما مصيرها إلى النار.

قال بعدها: والإيمان يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض. أي: الإيمان يتفاضل، أهله يتفاضلون فيه، وتفاضل أهل الإيمان يكون كماً وكيفاً، كماً بكثرة الأعمال كيفاً بما يقوم بقلوبهم أثناء الأعمال، فربما قل العمل وكان الإيمان التابع له عظيماً، يصلي واحد بجنب واحد بينهما كما بين السماء والأرض، لأن الذي يقوم بقلب هذا شيء عظيم في القلب وإن كانت صورة العمل واحدة.

إذاً الإيمان يتفاضل فيه أهله كماً وكيفاً، فليس بكثرة الأعمال فقط وإنما بحقيقة تلك الأعمال، وما يقوم بقلب العبد أثناء ذلك العمل من الصدق بدليل أن الله جل وعلا غفر لمرأة بغي سقت كلباً، سقيا الكلب أمر قليل، عمل معروف لكن ليس بالدرجة الكبيرة التي تتوقع منه أن يكفر ذنوب مرأة وهي موبقات.

لكن قام بقلب تلك المرأة أثناء ذلك العمل من تعظيم الله والوجل منه والرحمة القائمة بقلبها تجاه خلق من خلق الله ما جعل ذلك يفسخ تلك الذنوب العظيمة.

واستدل بقول الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الفتح: ٤ وهذا دليل على أن أهل الإيمان إنما يتفاضلون، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ البقرة: ٢٦٠ طمأنينة القلب قال الإمام مالك: هي زيادة في إيمانه. لماذا زيادة في إيمانه؟ لأن اليقين درجات أوله علم اليقين أعلى منه حق اليقين أعلى منه عين اليقين.

فعين اليقين هو الذي طلبه إبراهيم لأن الله تعالى قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ البقرة: ٢٦٠ المقصود بالإيمان هنا علم اليقين، يعلم قطعاً إبراهيم بأن الله يعيد الخلق كما بدأهم سبحانه بل هو أهون عليه، لكنه أراد أن يرى ذلك بعينه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ البقرة: ٢٦٠ أي: بلى آمنت ذلك الإيمان ولكن ليطمئن قلبي أي ليزداد إيماني، وليزداد يقيني.

ثم قال رحمه الله: الإيمان المعرفة والإقرار، والعمل. وهذا داخل في التعريف الذي مر وقوله: الإقرار. المقصود به إقرار اللسان، وهي شهادة التوحيد وما يتبعها فهنا ذكر ما يتعلق بالقلب، وذكر ما يتعلق باللسان، وما ذكر ما يتعلق بالجوارح.

قال: وليس للإيمان منتهى هو في زيادة أبداً. أي أن الإيمان لا يزال يزداد لأن الإيمان مالك رحمه الله كان لا يعبر بالنقص، وإن كان في الكلام الذي مر قال: يزيد وينقص. لأن بعض السلف كان يتحذر من كلمة النقص لأنه قال: النقص لم يأتِ

التعبير عنه، وفي الحقيقة النقص جاء التعبير عنه في قول النبي ﷺ «**ما رأيت من ناقصات دين وعقل**».

فعبر بنقصان الدين قال بعض أهل العلم: الاستدلال بهذا غير صحيح. لماذا؟ قالوا لأن النبي ﷺ فسر ذلك النقصان بأنها إذا حاضت لم تصلِ ولم تصم فلا يقصد به النبي ﷺ نقصان إيمانها بأن إيمانها نقص في حقيقته، وإنما نقصان العمل عبر به عن نقصان الإيمان.

الجواب عن هذا قال أهل العلم: إذا كان النبي ﷺ عبر بنقص الدين عند الأمر الاضطراري فكيف بنقص الدين عند الأمر الاختياري. ما بالك بالذي يشرب الخمر ويترك الصلاة عمداً كيف سيكون حاله؟ سيكون ناقصاً ولهذا الإيمان يزداد حتى يصير كالجبال وينقص حتى لا يبقى منه شيء، وهذا وجه قوي حسن جداً جداً.

ثم قال رحمه الله: ولا يقول أحد أنا مؤمن ولكن يقول أنا مؤمن إن شاء الله. وهذه مسألة الاستثناء وهي أن تقول أرجو أن أكون مؤمناً، أو أنا مؤمن إن شاء الله فقولهم الاستثناء في الإيمان، المقصود به هذا أرجو أن أكون مؤمناً، أو أنا مؤمن إن شاء الله وهذه المسألة المذاهب فيها على ثلاثة أنحاء بعضهم وأنا لا أتكلم عن أهل السنة بل أتكلم عن المذاهب إطلاقاً.

المذهب الأول: بعضهم قال: لا بد من الاستثناء وهو واجب لأنك إذا كنت لا تستثني فأنت مكابر لأنك لا تدري على ماذا ستموت فلابد من الاستثناء وهو قول الكلابية ومن تبعهم، قالوا لابد أن تستثني حتماً حتى بلغ القول ببعضهم أنه كان يقول أنا صليت إن شاء الله، وصمت إن شاء الله على الماضي أصلاً، وهذا غلو في الدين.

المذهب الثاني: قابلهم آخرون وهم المرجئة وقالوا لا يجوز الاستثناء قطعاً بل الاستثناء في الإيمان حرام، وسموا من استثنى من أهل السنة الشكاكة، قالوا لأن من استثنى شك، ومن شك ليس مستيقناً والذي لا يستيقن لا يصح إيمانه.

المذهب الثالث: وهو الحق وهو مذهب السلف وقولنا بجواز الاستثناء لأن الاستثناء يختلف مراد أهله منه، فلا نستطيع أن نفرد فيه قولاً واحداً باعتبار تعدد نيات أهله إذا استثنوا.

فأهل السنة قالوا يجوز الاستثناء لكنك إذا قصدت به الشك في الإيمان فيحرم الاستثناء قطعاً، ولكنهم قالوا إذا أردت به عدم التزكية لأن الإيمان يدخل فيه الإيمان المطلق: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الأنفال: ٢ وقول الله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ المؤمنون: ١ - ٢ يعني: من يستطيع أن يجزم بهذا، فالكلام على الإيمان المطلق هذا لا شك أن العبد يستثني لأنه لا يستطيع أن يزكي نفسه.

إذاً هم يقولون جائز من حيث أصله، لكنهم يقولون يحرم إن كان شكاً ويجوز إن كان لعدم التزكية، ويجوز باعتبار عدم العلم بالخاتمة، فأنت لا تدري بماذا يختم لك فهو جائز ولا نوجبه كما يوجبه الكلابية، وكذلك يجوز هذا تبركاً بذكر اسم الله ﷻ.

ثم قال: ولا يقول إنه مستكمل الإيمان، وأن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والملائكة المقربين فإنه قول المرجئة. الذين ساووا بين الفاسقين وبين الملائكة المقربين حتى قالوا:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

ومن اللطائف أن رجلاً شارباً للخمر مر عليه أحد المرجئة فسب شاربُ الخمر ذلك المرجئ سباً عظيماً فقال له: أتسبني وقد جعلتك مؤمناً كامل الإيمان؟ يعني انقلب السحر على الساحر.

ثم قال رحمه الله: وإني لأذكر بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ البقرة: ١٤٣ وقد تقدم الكلام على هذا، ومن اللطائف أن الله جل وعلا سمى الصلاة إيماناً لأن الصلاة يجتمع فيها كل أركان الإيمان القول، والعمل، والاعتقاد.

مسألة الأسماء والأحكام

[والمرجئة أخطأوا وقالوا قولاً عظيماً، قالوا إن أحرق الكعبة أو صنع كل شيء فهو مسلم، وقولي فيهما قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ التوبة: ١١ ولا نكفر أهل التوحيد بذنب، ولو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء والبدع، والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ أرجو أن يكون في أعلى درجة الفردوس مع النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك أن كل كبيرة فيما بين العبد وبين الله ﷻ فهو منه على رجاء، وكل هوى ليس منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم من مات على السنة فليبشر، من مات على السنة فليبشر، من مات على السنة فليبشر]

انتقل رحمه الله بعد أن ذكر المذهب الحق في الإيمان ذكر المذاهب الباطلة فبدأ بالمرجئة الذين جفوا، ثم انتقل إلى الخوارج الذين غلوا، ثم ذكر الحق، والمذهب الوسط في مسألة وهي مسألة الأسماء والأحكام، أما الأسماء فهي الأسماء مؤمن كافر فاسق، والأحكام هي أحكام الآخرة أي جنة أو نار.

وهذا حسن من جهة الترتيب لأن هذا الذي جرى عليه أهل العلم فإنهم إما أن يحذروا من المذاهب المخالفة ثم يؤصلون مسألة الإيمان، أو أنهم يؤصلون مسألة

الإيمان ثم يذكرون من خالف فيها، كما صنع أبو بكر ابن أبي داود رحمه الله صاحب الحائية في قوله:

ولا تعتقد رأي الخوارج إنه ... مقال لمن يهواه يردي ويفضح
ولا تك مرجياً لعوباً بدينه ... ألا إنما المرجي بالدين يمزح
وقل إنما الإيمان قول ونية ... وفعل على قول النبي مصرح
وينقص طوراً بالمعاصي وتارة ... بطاعته ينمو وفي الوزن يرجح

فذكر مذهب الخوارج ورد عنه وبين أنه مقال فاجر ثم ذكر مذهب المرجئ وذكر أنهم فجار ميعوا وأفسدوه، ثم ذكر المذهب الحق في مسألة الإيمان كما تقدم.

إذاً هنا قال: المرجئة أخطأوا وقالوا قولاً عظيماً. وهذا القول العظيم بأنهم قالوا من أحرق الكعبة أو صنع كل شيء فهو مسلم، أي أنهم لا يرون العبد يكفر بمجرد العمل وإنما حتى إذا حكموا بكفر أحد، قالوا يكفر بما قام بقلبه ليس بمجرد العمل.

ونحن معاشر أهل السنة والجماعة نقول بأن الرجل يكفر بمجرد العمل وإن كنا نعتقد أيضاً بأن هناك ترابطاً وتلازماً بين الظاهر والباطن، فإن من كفر ظاهراً هذا يدل على كفره باطناً، لكننا لا نشترط البحث عن قلبه حتى نحكم بكفره، وإلا ما كفرت أحداً بعمل، فالذي يهدم الكعبة، ويركل المصحف ويسب الله، ويسب رسوله هذا كافر بمجرد فعله.

قال: وقولي فيهم ما قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ التوبة: ١١. فالإمام مالك رحمه الله وهو من هو إمامة في القرآن قبل السنة، ولهذا لما سُئلت أخت الإمام مالك رحمه الله ما كان صنيعه في البيت؟ قالت: لم يكن له شغل إلا القرآن. رجل إمام في الفقه والحديث لكنه في بيته لم يكن له شغل إلا القرآن، وكان عنده فهم ثاقب في كتاب الله.

وهذه يا إخوة أقولها كجملة معترضة لكم من ظن منكم أنه سيصل في العلم إلى شيء بغير حفظ لكتاب الله تعالى، أو حفظ جزء منه كبير وإتقانه، والصلاة به وتدبره وفهم معانيه، واستظهار أدلته واستحضار معانيه فإن طالب العلم لا يفلح بغير هذا.

ولهذا انظر حتى في التاريخ القديم والمعاصر من لم يحفظ كتاب الله تعالى من العلماء تجده من أكثر الناس قراءة للقرآن، حتى يكون القرآن كالمطبوع عندهم وعندنا أمثلة كثيرة في هذا العصر ممن لم يتقن القرآن كاملاً حفظاً لكن استشهاده واستدلاله به كان شيئاً عظيماً.

فالإمام مالك هنا استدل عليهم بآية التوبة لأن الله تعالى ربط الأخوة في الدين التي هي إيمان، الأخوة في الدين تثبت بالإيمان قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ الحجرات: ١٠ بفعل الصلاة، وأداء الزكاة، فجعل الله تعالى الأخوة مربوطة بعمل طبعاً على الخلاف المعروف في مسألة الصلاة، ومسألة الزكاة، لكن ليس هذا المراد، المراد بأن الله تعالى رتب الأخوة في الدين على العمل الظاهر.

ولهذا قال عمر: أقتله يا رسول الله قال: «**لا لعله يصلي**» أننابذهم قال« **لا ما صلوا**» فجعل النبي ﷺ فعل شعار عظيم، وشعيرة عظيمة من شعائر الدين وهي الصلاة عاصمة لدماء المسلمين، ولهذا قال ﷺ «**من صلى صلاتنا وذبح نسكنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم له ما لنا، وعليه ما علينا**».

فلم يقل النبي ﷺ من استيقن بقلبه فقط فله ما لنا، وعليه ما علينا، بل ربط ذلك بالعمل. لهذا هذا الاستدلال لطيف.

ثم ذكر رحمه الله المذهب الذي يقابل المرجئة وهو مذهب الخوارج ولهذا قال: ولا نكفر أهل التوحيد بذنب. لأن الخوارج غلوا في هذا الباب وقالوا الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فقالوا من ارتكب كبيرة خرج من الدين.

قال المعتزلة نوافقكم في تخليده في النار في الآخرة غير أنه في الدنيا لم يخرج من الدين بالكلية ولكنه في منزلة بين المنزلتين وجعلوا هذه القاعدة من أصولهم الخمسة التي بنوا عليها أصولهم، وكتبوا فيها كتباً وشرحوها وشرحها أبو الحسين البصري هو الذي شرح هذه الأصول الخمسة وبنوا عليها مذهبهم، قالوا منزلة بين المنزلتين وأما في الآخرة فهم يوافقون الخوارج، طبعاً الرد عليهم بتفصيل ليس هذا المقام.

لكن حتى تفهم أن الإمام مالك رحمه الله في الإيمان كلامه عظيم في تأصيل باب الإيمان لكنه أيضاً رد على من خالف الإيمان غلواً وجفاء والحق وسط بين هؤلاء وبين هؤلاء:

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

يقول قحطان في نونيته:

واقصد هُديت ولا تكن متغالياً إن القدور تفور بالغليان

فلهذا الخوارج ضلوا، وسيأتي الكلام عليهم إن شاء الله تعالى إذا تكلمنا على مسألة الخروج في كلام الإمام مالك رحمه الله.

ثم الإمام مالك في هذا النقل العظيم الذي نقله شيخ الإسلام الهروي في كتابه ذم الكلام قال: لو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيء فهذا نستفيد منه أمرين:

الأمر الأول: أن الإمام مالك يرى أن الشرك ناقل عن ملة الإسلام.

الأمر الثاني: يرى أن المؤمن قد يرتكب الكبيرة ويبقى مؤمناً فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وهذا الذي يعبر عنه السلف والأئمة بالفاسق الملي ولهذا يقول ابن أبي داود:

ولا تكفرن أهل الصلاة وإن عصوا فكلهم يعصي وذو العرش يصفح

يقول السفاريني في نظمه الدرة وقد شرحناه هنا بشرح ابن سعدي يقول:

ومن يمت ولم يتب من الخطأ فأمره موكل لذي العطاء

فإن يشأ يعفو وإن يشأ انتقم وإن يشأ أعطى وأجزل النعم

فالله جل وعلا يغفر لمن يشاء إذا شاء، وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ النساء: ٤٨ قال ابن عطية الأندلسي- صاحب

المحرر الوجيز قال: هذه الآية فيها رد على المشركين وأهل الكتاب والمرجئة والخوارج قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ النساء: ٤٨ رد على أهل الكتاب والمشركين الذين أشركوا ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ النساء: ٤٨ رد على الخوارج وقوله: ﴿ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ النساء: ٤٨ رد على المرجئة الذين قالوا يغفر كل شيء.

قال: ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ. أي: نجى من البدع الكبيرة بعضها مكفر، وبعضها دون ذلك، وسب أصحاب النبي ﷺ سيأتي معنا فيه ما هو كفر أكبر باتفاق المسلمين، وفيه ما هو دون ذلك والكل بلاء عظيم.

قال: أرجو أن يكون في أعلى درجة الفردوس مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وتقدم الكلام على هذا في الدرس الماضي بأن المسلم وإن كان قليل العمل فإنه قد يعلو عند الله جل وعلا بعقيدته وسلامة صدره لأصحاب النبي ﷺ وسلامة عقيدته، وأما الأعمال الكثيرة فإنها لا تستقر مع العقيدة الفاسدة كما مر معنا في قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٦ .

قال: وذلك أن كل كبيرة فيما بين العبد وبين الله ﷻ فهو منه على رجاء. أي: على رجاء الغفران ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ النساء: ٤٨ قال: وكل هوى. أي: أن كل

هوى ليس منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم والعياذ بالله، والهوى سُمي بهذا.

قال: من مات على السنة فليبشر، من مات على السنة فليبشر، من مات على السنة فليبشر. أي: فليبشر بكل خير، ولهذا قال مجاهد: ما أدري أي النعمتين علي أعظم أن هداني للإسلام أو أن هداني للسنة. لأن الإمام مالك قال: فليبشر بخير ولهذا يقول ابن أبي داود في آخر الحائية:

إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هذه فأنت على خير تبيت وتصبح

قوله: هذه. أي هذه العقيدة، فمن اعتقد هذه العقيدة فهو على خير ولهذا يقول شيخ الإسلام في اللامية:

هذا اعتقاد الشافعي ومالك وأبي حنيفة ثم أحمد ينقل

فإن اتبعت سبيلهم فموفق وإن ابتدعت فما عليك معول

فهذه العقيدة كما قال لمن مالك من مات عليها فقد مات على خير وأما غيرنا فإنه يجتهد كثيراً وسعيه باطل والعياذ بالله.

الشهادة للمعين

[ولا نشهد لأحد لصلاحه أنه في الجنة].

من آثار مسألة الإيمان أننا قلنا الإيمان يزيد وينقص، وقلنا نستثني في الإيمان وحذرنا من مذاهب الطوائف الضالة في هذا الباب، يتفرع عن هذا هل نشهد لرجل معين ولو كان عظيم الإيمان بأنه في الجنة؟ أو هل نشهد لرجل ولو كان عظيم الفسق بأنه في النار؟ لماذا وضعها هنا؟ لأن هذه متفرعة عن مسألة الإيمان، وهي مسألة الشهادة لمعين.

فمهما بلغ الرجل في الصلاح فقاعدة أهل السنة والجماعة واضحة نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، والكلام على من ليس فيه نص صريح أما من كان فيه نص فهذا نؤمن بذلك باعتبار النص لا باعتبار شهادتنا له عيناً نشهد له عيناً تصديقاً بالنص ليس لصلاحه، ولهذا إذا قلنا الصحابة نقول الصحابة جملتهم في الجنة هذا حق.

لكن تعيين واحد من الناس هذا أهل السنة يتأدبون مع النصوص ويقولون نشهد لمن شهد له النبي ﷺ، الكفار جملتهم في النار لكن لا نشهد إلا من شهد له

النص فنقول الوليد بن المغيرة في النار، قارون في النار، همان فرعون، أبو جهل، أبو طالب في النار، ابن جدعان في النار وهكذا، وغير ذلك.

والمؤمنون كذلك نشهد لمن جاء له النص لماذا أقول هذا؟ لأنه ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بأن الذي استفاض ثناء الأمة عليه كالأئمة الأربعة، ومن تقدمهم كالحسن، وابن المسيب، والسفيانين وغيره من الأئمة العظام الكبار الذين لهم قدموا صدق في هذا الدين هو يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أن قول النبي ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**» هذا يجعلك تشهد لهم باعتبار هذا الدليل.

ولكن الحق الوقوف مع النص مع اعتقادنا بأن هؤلاء لهم قدم صدق ونرجو لهم عند الله جل وعلا الدرجات العلى، لكن الأحسن التأدب مع النص.

القرآن كلام الله غير مخلوق

[والقرآن كلام الله ﷻ وهو منه، وليس من الله ﷻ شيء مخلوق، ومن قال القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم، ومن قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضُربت عنقه]

انتقل بعدها إلى مسألة جليلة وهي مسألة عقيدتنا في باب الكلام فقال: القرآن كلام الله ﷻ وهو منه. أي: من عند الله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥ والقرآن من عند الله ابتداء، ولهذا أهل السنة والجماعة يقولون القرآن كلام الله منه بدأ وبعضهم يقول منه بدى أي ظهر، وإليه يعود، فالقرآن من عند الله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ طه: ١٣.

فالكلام كلامه سبحانه والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يوسف: ٢ فالكلام منزلُ من عند الله وهو كلامه الذي تكلم به.

قال: وليس من الله ﷻ شيء مخلوق. القرآن صفة من صفات الله هذه الصفة إذا قلت هي مخلوقة، يأتي واحد آخر يقول والرحمة هل هي صفة؟ تقول نعم، إذاً هي مخلوقة، والحياة هل هي صفة؟ نعم إذاً هي مخلوق، إذاً ما الذي بقي غير مخلوق؟

إذاً هو مخلوق، هذا أحسن وصف للمخلوق بأن تقول يده مخلوقة، وكلامه مخلوق وفعله مخلوق، وجلوسه مخلوق هذا هو تعريف المخلوق.

الخالق: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ الزمر: ٦٢ ولهذا الله جل وعلا فرق في كتابه بين الخلق والأمر قال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ﴾ الأعراف: ٥٤ فالخلق خلق، والأمر ما هو؟ كلامه، بدليل آية الشورى قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ الشورى: ٥٢ إذاً الوحي من أمر الله، إذاً هنا الله جل وعلا فرق بين الخلق والأمر، ولهذا يقول ابن عدود وقد مر معنا في نظم مجمل اعتقاد السلف قال:

ألا لـه الخلـق والأمـر العطـف دل أن لـيس خلقـاً مـا مـن الأمـر نـزل

وهذا بيت لطيف جداً لأنه يضبط المسألة.

إذاً هنا قال: ومن قال القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم. لأن هذا كفر أكبر باتفاق الأئمة.

قال: ومن قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضُربت عنقه. هذا الإمام مالك رحمه الله يعني لو نقلت هذه العبارة عن غيره لقال لك بعضهم أنت متشدد وهابي تيمي، حنبلي، هذا الإمام رحمه الله رحمه الله وهذا الكلام ينقله اللالكائي عنه وهو مبثوث في كتب الملكية أيضاً.

ومسألة الكلام مسألة طويلة ومباحثها كثيرة لكن الذي ينبغي أن يُعلم فيها عقيدتنا بأن كلام الله جل وعلا منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله جل وعلا به بحرف وصوت، وكلام الله تعالى نوعان:

النوع الأول: كوني.

النوع الثاني: شرعي، والشرعي كلامه في كتبه التي نزلها وأعظمها القرآن والكوني ما يكون الله جل وعلا به كل شيء لأن أمره سبحانه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون هذا المراد بالكلام الكوني.

وهنا مسألة وهي قوله جل وعلا يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ لقمان: ٢٧ هذه الكلمات هنا في لقمان والكلمات من قبل ذلك في الكهف هل المقصود بها الكلام الكوني ولا الشرعي الذي لا ينفد؟.

إمرار أحاديث الصفات

[وأحاديث الصفات نمرها كما جاءت بلا كيف]

هذه قاعدة كلية جاءت عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وجاءت عن جماعة من السلف:

نمرهـــا صريحـــة كـــما أتـــت مـــع اعتقادنـــا لمـــا لـــه اقتضـــت

فهذه القاعدة قاعدة كلية في الصفات حقيقة معناها أن أهل السنة والجماعة يمرون آيات الصفات وأحاديث الصفات يمرونها، أي يمرونها اعتقاداً لما دلت عليه من معنى، وسيأتي هذا من كلام الإمام مالك في الاستواء، إذاً هم يقرون معناها ويفوضون كيفيته، هذا هو التفويض الذي هو حق.

أما أن يقال بأن قولهم نمرها، أو تفسيرها قراءتها، أو نمرها كما جاءت أو اقرؤوها ولا تفسروها أو شيء من هذا قال أن السلف يفوضون المعنى هذا غير صحيح، السلف لو كانوا يفوضون المعنى ما فَقِهُوا كلام الله، والله جل وعلا قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ص: ٢٩ وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ محمد: ٢٤ ولم يستثنِ آية ولهذا قال مجاهد: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات استوقفه عند كل آية، إلا آيات الصفات قال مر ولا تقف.

إذاً هنا دليل قطعي بأن ابن عباس فسر القرآن كاملاً لمجاهد، إذا هذا المذهب باطل وهو مذهب التجهيل، يُجهلون الصحابة بل يقولون أن النبي ﷺ كان يقرأ كلاماً لا يفقه معناه، يقول لا معنى له، إذاً لماذا الله تعالى يدعون للتدبر وخاصة في كلامه وفي أسمائه وصفاته ﷻ.

إذاً أهل السنة والجماعة يقرون بالمعنى الموافق للسان العربي، وهذا كان سبباً في الحقيقة في رجوع بعض كبار المتكلمين كالجويني قال: تأملت أحوال النبي ﷺ فرأيته يأتيه الغبي، والبليد، والذكي، والأعرابي، والبدوي ويقرأ عليهم النبي ﷺ القرآن وفيه الصفات ويذكرهم بالسنة وفيها الصفات، فيها ،القدم والساق، والوجه واليدين، والاستواء، والعلو وغير ذلك، ولا مرة النبي ﷺ يقول انظر ظاهرها غير مراد، إياك أن تفسر هذه الآيات، لا تقف مع معناها، أو إياكم ومعناها أو أو أو إلى غير ذلك.

قال الجويني وهو من كبار المتكلمين قال: وهذا دليل قطعي على أن ظاهر تلك الألفاظ الموافق للغة العرب هو المراد. لأن التأويل يا إخوة حمل للمعنى ونقل من الكلام العربي من معنى إلى معنى، هذا عند علماء اللغة يحتاج إلى قرينة ما هذه القرينة التي ستجيب بها عند الله؟ ليس لك قرينة.

ونضرب لكم مثال من قال إن العرب تطلق اليد على النعمة، لفلان علي يد أي نعمة لهذا قال عروة بن مسعود لأبي بكر لما سبه يوم الحديبية قال: لولا يد لك علي

لك لكفأتك بها لما قال له كلاماً وسباً شديداً. قوله هنا: يد لك علي. هل المقصود بها حقيقة اليد هذه؟ لا، المقصود بها النعمة، هل هذا يخالف ما جاء في القرآن؟ هذا يوافق ما جاء في القرآن.

لأن في القرآن جاءت اليد بهذا المعنى ومنها: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الذاريات: ٤٧ فسرها بعض السلف بأن الأيد هنا المقصود بها القوة، لأن السماء لم تبنَ بيدي الله لأن الله تعالى كرم آدم وخلقه بيده، وجنة الفردوس بيده، أما السماء.

لو جاء شخص يقول إذاً كيف تقول لماذا نحمل اليد على النعمة أو القوة وهنا أنت تحملها على اليد الحقيقية؟ يقال الرد عن ذلك من أوجه:

الوجه الأول: إذا كانت نعمة الله يقال لك علي يداني والله تعالى قال: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ المائدة: ٦٤ والنعمة لا توصف بالبسط.

الوجه الثاني: هذا الدليل عليك لا لك، لأن العرب لا تقول له علي يد إلا لأن له يد حقيقي، ولهذا لا تقول العرب الريح لها علينا يد لأن الريح لا يد لها، إذاً هذا دليل عليك لا لك، لأن العرب إذا قالت له علي يد لأن له يداً حقيقة الأصل في الإعطاء إنما يكون بها، فعبروا بلازم تلك اليد مع عدم إنكارهم لحقيقة تلك اليد.

إذاً هنا قال: وحديث الصفات نمرها كما جاءت بلا كيف. أي: بلا كيف نعلمه لا بلا كيف موجود، لأنه ما من شيء في الوجود إلا وله كيفية، لكن هذه الكيفية

قطعنا الطمع في الوصول إليها لأنه قال جلا وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى: ١١.

ولذا قال بعض كبار الأئمة: كما أن موسى عليه السلام لما طلب من ربه أن يتجلى له قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ الأعراف: ١٤٣ قالوا تجلى الله للجبل قدر أنملة.

قالوا إذا كان الله تعالى تجلى لهذا الجبل فاندك فكذلك لا يتخيل كنهه أحد إلا هلك، لأنك كل ما ستتخيله اعلم واجزم بأن الله جل وعلا بخلافه، لأن عادة البشر جرت بأنك لا يمكن أن تتصور شيئاً إلا بإحدى ثلاث:

الأول: إذا كنت قد رأيته وهذا منقطع قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ الأعراف: ١٤٣ أي: في الدنيا وسيأتي من كلام الإمام مالك رحمه الله تفسير لهذه الآية.

الثاني: أن تكون قد رأيت جنسه، يعني أنا لو وصفت لك موزاً رأيته في دولة في إفريقيا لكنه موز غريب، لكن أنت عندك فكرة على جنس الموز ستعرف بأنه سيكون شيء فيه اعوجاج، قد يتغير في لونه، في بعض شكله لكن يبقى موز. وهذ ليست موجودة في حق الله، لم نرَ الله تعالى، واحد ليس قبله شيء وليس بعده شيء ﷻ لم يلد ولم يولد إذاً هذا انتهى.

الثالث: أن يوصف لك وصف كيفية، وهذه غير موجودة قالت: يا رسول الله أرأيت ربك ليلة المعراج؟ قال: «**نور أنى أراه، أو أنى يُرى؟**» خير الناس لما وصل إلى

مكان لم يصل إليه بشر، وصل إلى أعظم ما يمكن أن يصره البشر في الدنيا لم يستطع رؤية الله جل وعلا، ولم يصفه وصفة كيفية وهو أعلم الناس برب الناس وأنصح الناس لعباد الله ﷻ، ولم يذكر هذا، إذاً دل على أن الطمع منقطع عن هذا الأمر.

ولهذا النبي ﷺ أخبر أن من علامات الدجال بأننا نراه وهو وصفه وصفة كيفية وهذا منقطع في حق الله قال: «**اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» إذاً قاعدة أهل السنة وجماعة بلا كيف نعلمه وإلا ما من شيء إلا وله كيفية.

صفة العلو لله

[والله في السماء وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ المجادلة: ٧ قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه: ٥ والاستواء منه غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، والنزول حق، وأمضي الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار، وبما جاء في الكتاب قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ النحل: ٧٤ ينزل كيف شاء بقدرته وعلمه، وعظمته، أحاط بكل شيء علماً].

هنا كلام الإمام مالك رحمه الله في مسألة أخرى من مسائل الصفات وهي صفة العلو لله جل وعلا، ثم صفة المعية، ثم صفة النزول، وهذه الصفات يرتبط بعضها ببعض، فإن المعية لا تنافي العلو، والنزول يدل على العلو، فالعلو مشترك بين هذا الكلام كله.

قال هنا رحمه الله: والله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان. فقوله هنا: والله في السماء. إذا كانت في بمعنى الضرف فيكون في السماء أي في العلو وكل ما

سماك فقد علاك، أو يكون في بمعنى على ويكون هنا أي على السماء أي عالٍ فوق هذه السماء التي فوقنا والكل واحد أي أن الله جل وعلا في العلو.

ثم زاد فقال: وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان. أي: أن علوه سبحانه لا يناقض إحاطته بخلقه ومعية الله تعالى لخلقه نوعان:

النوع الأول: معية عامة.

النوع الثاني: معية خاصة.

المعية العامة لكل الخلق مقتضاها الإحاطة، والرؤية، والسمع، والإبصار وهكذا، والثانية معية خاصة وهي لأوليائه ﷻ ومقتضاها النصر والتأييد، والحفظ قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ طه: ٤٦ وقال جل وعلا: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ التوبة: ٤٠ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ النحل: ١٢٨ .

وبعضهم يقول المعية ثلاثة أنواع:

النوع الأول: معية عامة.

النوع الثاني: معية خاصة

النوع الثالث: معية لخاصة خاصة، وهذه متفرعة عن المعية الخاصة قطعاً

إذاً هذه مسألة المعية ومسألة العلو، ثم استدل بقول الله تعالى في المجادلة قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ المجادلة: ٧

فاستدل بهذه الآية، والاستدلال بهذه الآية المراد منه ماذا؟ أن الله جل وعلا مع خلقه وإذا كان المقصود بالخلق عامة الخلق المقصود به المعية العامة وإذا كان المقصود به خاصة الخلق فالمقصود به المعية الخاصة.

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ المجادلة: ٧ ولم يقل إلا هو ثالثهم وإنما قال: ﴿ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ المجادلة: ٧ فدل على أن الله تعالى مختلف عن خلقه، مخالف لهم كما قال السلف: ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته. لأن العرب إذا جعلت المضاف من جنس المضاف إليه قالت: رابع أربعة، وثالث ثلاثة، وثاني اثنين. وإذا كان المضاف من غير جنس المضاف إليه قالت خامس أربعة وسادس خمسة.

بدليل أن الله جل وعلا كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ المائدة: ٧٣ لأنهم ساووا بين الله وبين الاثنين الآخرين في الإلهية وقال تعالى في التوبة: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ التوبة: ٤٠ والنبي ﷺ من جنس أبي بكر هذا بشر، وهذا بشر.

لكن لما تكلم عن نفسه قال: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ المجادلة: ٧ ولم يقل هو رابع أربعة، ولا خامس خمسة لأن العرب إذا قالت رابع أربعة فإن المضاف هو من جنس المضاف إليه، فهذا يدل على أن معية الله

لا تقتضي الاختلاط بخلقه، وإنما هي معية حقيقية إذا سمعها العربي علم أن الله فوق وعباده تحت، أشار ذكره تصريحاً ابن القيم في الصواعق المرسلة، وهذا دليل قوي.

الله مع علوه محيط بخلقه، هو معهم لا تحتاج أن تفسره أصلاً لأن العربي يفهم بأن الله رابع ثلاثة، وخامس ستة ولكن ليس معه، ولله المثل الأعلى في سورة الكهف ماذا قال عن الكلب قال: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الكهف: ٢٢ لأن الكلب ليس من جنس البشر، ولله المثل الأعلى ولهذا يقال رابع ثلاثة، وسادس خمسة.

ثم قال: قال الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه: ٥ استوى أي: علا وارتفع.

وقال: الاستواء منه غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وها هنا أثبت أمرين:

الأمر الأول: العلو.

الأمر الثاني: الاستواء.

والعلو صفة ذاتية، والاستواء صفة فعلية، أنها ذاتية أي أنها موجودة أزلاً أن الاستواء فعلي أنه تابع للمشيئة، فإن الله لم يكن مستوياً ثم استوى بعد أن خلق السماوات والأرض قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الأعراف: ٥٤ وقولة الإمام مالك هنا هي من أشهر ما نسب للإمام مالك في باب الاعتقاد بل صارت هذه الكلمة منه قاعدة كلية في الدين يتناقلها المسلمون إلى يوم الدين.

وهي كما قال أهل العلم هذه كلمة قالها لمن مالك في مسألة العلو لكن الله أجرى الحق على لسانه وقلبه فصارت قاعدة كلية في الغيبيات، كل شيء أذكره لك من علم الغيب قل لي هذا معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، أذكر لك الصراط يوم القيامة، قل لي الصراط معلوم، والكيف مجهول، وإن وصفه لكن يبقى وصف عجيب فهمت لكننا نؤمن به، ونصدق به، والسؤال عن الكيفية التي حُجبت عنه بدعة، الميزان كذلك ناهيك عن صفات الباري ﷻ.

إذاً هذه المقولة من الإمام مالك رحمه الله وقد رُويت عن شيخه ربيعة الرأي ورُويت عن أم سلمة، لكن لم تصح إلا عن الإمام مالك رحمه الله فالظاهر أنها من كلامه هو فقط رحمه الله.

وقوله: السؤال عنه بدعة. قاعدة في نقض كل تكلف في الدين النبي ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**».

ثم قال: والنزول حق. والنزول يدل على العلو باللزوم لأنه إذا نزل دل على علوه، وإن كان نزوله لا ينافي علوه ﷻ لكنه يدل عليه باللزوم.

قال: والنزول حق. أي: ثابت وحديث النزول حديث متواتر جاء عن جماعة من السلف لم يتأوله واحد منهم، دل على أننا نثبته على حقيقته.

قال: وأمضي الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد. أي: لا تضرب لله الأمثال كما سيأتي مع العلم أن الكيف موجود لكننا لا نعلمه لأن الله تعالى حجبه عنا.

قال: إلا بما جاءت به الآثار وبما جاء في الكتاب. أي: لا نجاوز كما قال الإمام أحمد: لا نجاوز الكتاب والحديث. لأن الباب باب وقفي بحت، وقفت حدود الخلق عنده لا يمكن لأحد أن يطلع من وراء ذلك على شيء، وإنما يتعب نفسه فيما لا طائل تحته فإن الكيف محجوب عنك قطعاً.

قال: وبما جاء في الكتاب. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ النحل: ٧٤ هذه الآية سيقت في معرض الرد على المشركين فالله جل وعلا قال: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ النحل: ٧٤ أي: فلا تضربوا لله تعالى الأشباه، والأشباه التي ضربها المشركون هو أنهم جعلوا الأصنام مشابهة لله، فصرفوا لها العبادة من دون الله فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ النحل: ٧٤ أي: فلا تضربوا لله تعالى الأشباه من الأصنام وغيرها.

ولهذا لما استقر في قلوب المشركين أن هذه الأصنام مشابهة لله صرف لها العبادة لأنه لا يمكن لأحد أن يصرف عبادة لمخلوق إلا إذا استقر في قلبه أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يكون هذا فاعلاً نافعاً، ضاراً، خالقاً، رازقاً.

الأمر الثاني: أن يعتقد أنه لشرفه يستحق العبادة وإن بقي اعتقاده في الربوبية لله ومن لم يفهم توحيد المرسلين ظن بأن الكفر والشرك الأكبر لا يكون إلا في الأول الشرك يكون في صرف العبادة لغير الله وإن اعتقدت الربوبية في غيره لأن المشركين

كانوا يعتقدون بأن الخالق هو الله، وأن الرازق والمحي والمميت هو الله، وإنما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣.

قوله هنا: والنزول حق. النزول جاء وثبت بالتواتر، ونزول الله جل وعلا يدل على علوه، وإذا نزل الله تعالى يقول: «**هل من مستغفر فأغفر له وهل من داع فأستجيب له**» ونزول الله تعالى يكون في الثلث الآخر من الليل.

فإن قال قائل الثلث الآخر في الليل في تونس يكون النهار في في أمريكا أو في غير ذلك يقال أينما وُجدت ووُجد الثلث الآخر في أي مكان فإن الله ينزل فسل ربك في ذاك الوقت، كالذي حضرته صلاة العصر هنا هل يقول أنا لن أصلي لأن في البرازيل لم يدخل وقت العصر بعد، هل يستقيم؟ لا يستقيم.

أنت مُتَعَبد بحالك الذي أنت فيه فإذا كنت في مكان الثلث الآخر فيه فاعلم يقيناً بلا تردد أن الله ينزل، وهذه نفحات ينبغي للمؤمن أن يتعرض لها.

قال ابن أبي داود في الحائية:

وقل ينزل الجبار في كل ليلة ... بلا كيف جل الواحد المتمدح

يقول ألا مستغفر يلقَ غافراً ... ومستمنح خيراً وفضلاً فيمنح

لأن هذه الأوقات أوقات عظيمة حتى قال بعض السلف: عجبت لمن له عند الله حاجة وينام في الثلث الآخر من الليل. أنت عندك لله حاجة إذا أردت أن تسأله هذا

وقت السحر الذي نام فيه الخلق وأنت قائم، ولهذا من القواعد الشرعية أن العبادة يزداد فضلها، ونورها، وأجرها إذا كثر الغافلون حولك طبق هذا تجده.

ولهذا يُضاعف أجر العابد في الغربة ويقبل من زَلَله ما لا يقبل عند غيره ولشيخ الإسلام كلام متين في الفتاوى لما تكلم على النجاشي قال: فقد قُبل منه القليل وتجاوز الله عنه الكثير. ولم يؤاخذه النبي ﷺ بالرغم من أنه كان في الظاهر على دين النصارى، ولما مات صلى عليه وهذا دليل على صلاحه قطعاً.

ولهذا في الثلث الآخر عُظم الأجر لأن العابد قليل، وهذه قاعدة شرعية خذها وطبقها، ولهذا شرف الثلث الآخر من الليل من هذه الجهة.

رؤية الله عزوجل

[والمؤمنون ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم هاتين قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣ ومن قال: ينظرون إلى ثوابه فقد كذبوا بل تنظر إلى الله نظراً أما سمعت قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الأعراف: ١٤٣ تراه سأل ربه محالاً؟ قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ الأعراف: ١٤٣ في الدنيا لأنها دار فناء ولا يُنظر ما يبقى بما يفنى، فإذا صاروا إلى دار البقاء نظروا بما يبقى إلى ما يبقى، وأين هم من قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ المطففين: ١٥ فلو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب].

وهذا الكلام منه رحمه الله تعالى لا يُشرح أصلاً لوضوحه، وظهوره، وقوة حجته نقلاً وعقلاً.

والإمام مالك رحمه الله شرف بأمور منها أن الرجل إمام في المعقول والمنقول لماذا في المعقول؟ لأنه عرف من أهل الرأي ما عرف، وشيخه ربيعة كان يسمى ربيعة الرأي ولكنه في نفس الوقت هو الذي صنف الموطأ ووطأه للخلق، فهو إمام في الحديث وإمام في الفقه، وإمام أيضاً في الرأي، لكن الرأي لا يقدمه الإمام مالك رحمه الله على النص، ولهذا كلامه هنا ظاهر وبيّن.

والرؤية من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين وإنما هي كائنة يوم القيامة والأحاديث فيها معلومة متواترة، ولهذا قال محمد التاودي بن سودة رحمه الله في حاشيته على البخاري قال:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتاً واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذه بعض

فهذه أمور متواترة قطعية، والإمام مالك رحمه الله هنا بكلامه رد على المعتزلة الذين أنكروا الرؤية أصلاً، ورد أيضاً على المتكلمين من الكلابية وغيرهم وهم بعد الإمام مالك رحمه الله ممن قال يُنظر إلى غير جهة العلو، فهو قال: ينظرون بأعينهم هاتين. فالنظر يكون بحاسة البصر، ويكون أيضاً إلى جهة العلو.

لأنه لو لم يكن إلى جهة العلو حتى قال بعضهم من المتكلفين قال: تُزرع العيون في جسد الإنسان فيرى الله من كل جهة. لماذا؟ لأنهم أثبتوا الرؤية وأنكروا العلو فقالوا قولاً ملفقاً فلا هم للحق نصروا، ولاهم للباطل كسروا.

فهمتم لكن الإمام مالك كلامه واضح ولهذا يقول ابن أبي داود رحمه الله:

وقل يتجلى الله للخلق جهرة ... كما البدر لا يخفى وربك أوضح

أي: شبه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي:

وليس بمولود وليس بوالد ... وليس له شبه تعالى المسبح

أي ذكر هنا هذا الأمر حتى لا تظن بأن الله إذا رأيته ستحيط به لا يُحاط به سبحانه وتعالى.

ثم قال:

وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا بمصداق ما قلنا حديث مصحح

رواه جرير عن مقال محمد فقل مثل ما قد قال تنجو وتربح

والإمام مالك اشتهر عنه أيضاً قوله والشافعي أيضاً أن الله تعالى لما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ المطففين: ١٥ قال: إذا حجب هؤلاء في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى.

والله جل وعلا لم ينكر الرؤية على موسى ولم ينكر طلب الرؤية لأنه لو كان مستحيلاً لقال الله جل وعلا له سألت إفكاً لا يجوز، لكنه قال جل وعلا: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ الأعراف: ١٤٣ ولم يقل أنا لا أرى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ الأعراف: ١٤٣ واستقرار الجبل مكانه أمر ممكن، فتعليق الأمر بممكن يدل على أنه ممكن، وتعليق الأمر بالمحال يدل على أنه محال قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ الزخرف: ٨١ فعلقه بمحال، لكن إذا علقه بممكن دل على أنه ممكن.

إذاً الرؤية ممكنة لكنها مُنعت في الدنيا لحكمة عند الباري سبحانه، وادخر ذلك الفضل العظيم والأجر الكبير، والنعيم الذي ليس له نظير، ادخره لعباده المؤمنين يوم القيامة والكلام على رؤية التنعيم والتشريف، لا عن رؤية الامتحان والتكليف فالخلاف في الثانية معلوم معروف.

إنكار الرؤية

[ومن أنكر الرؤية فليس له إلا السيف]

لأنه أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، الرؤية أمر معلوم يعلمه المسلمون بل المسلمون يرجون إذا دخلوا جنة الله تعالى بعد رضوانه أعظم نعيم هو أن ترى الله ليس هناك نعيم في الجنة أعظم من هذا، لأن النساء، والأكل، والأنهار، والبيوت والراحة هذا بعض النعيم، وأعظم نعيم هو أن يرى الله.

ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله:

ويرونه من بعد كشف حجابه ... جهراً روى مسلم ببيان

وإذا رآه المؤمنون نسوا الذي ... هم فيه مما نالت العينان

والله ما في هذه الدنيا ألذ ... من اشتياق العبد للرحمن

أعظم شيء هو أن يدخل العبد جنةً يرضى الله تعالى فيها عليه ثم من رضاه سبحانه يكشف الحجاب بينه وبينه حتى يرى الله، هذا ليس بعده نعيم، وأولى الناس بهذا النعيم هم أهل السنة الذين أثبتوا هذا النعيم، وأما من أنكر هذا النعيم فيُخشى عليه بأن يحرم هذا النعيم والعياذ بالله.

تكليم الله لموسى

[والله ﷻ كلم موسى]

ليته ـ أعني الجامع جزاه الله خير ـ ليته ذكر هذا عند الكلام على القرآن ، لما تكلم على القرآن المخلوق هذه حقها التقديم، لأن بعد هذه سيذكر الميزان، والرؤية والميزان من أمور الغيب التي تكون يوم القيامة، فإقحام الكلام هنا سببه يكون راجعاً لأمرين:

الأمر الأول: أن يكون سهوا وهذا وارد.

الأمر الثاني: أن يكون أنه لما تكلم عن الرؤية والآيات التي فيها الرؤية فيها تكلم موسى قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الأعراف: ١٤٣ فاستحضر ـ هذه الآية وفيها الكلام، والرؤية فذكر الرؤية وذكر الكلام، وهذا أيضاً وارد.

وتكليم الله جل وعلا لموسى أمر معلوم قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء: ١٦٤ ولهذا لما أنكر جعد بن درهم تكليم الله تعالى لموسى وأن يكون الله قد اتخذ إبراهيم خليلاً قتله خالد القسري، ولهذا يقول ابن القيم في أول النونية:

من أجل ذا ضحى بجعد خالد الـ ـــقسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الدان

شكر الضحية كل صاحب سنة لله دره من أخي قربان

هذه القصة بعض المعاصرين كتب سلسلة اسمها قصص لا تثبت، وهي لجماعة من الباحثين وعملهم عظيم ـ جزاهم الله خير ـ ونافع وأنا ممن يتابع تلك السلسلة من الأمور التي ذكروا أنها لا تثبت هذه القصة قصة خالد القسري ،وهذه القصة في الحقيقة شهرتها تغني عن تتبع أسانيدها لأن أئمة السنة قاطبة سيما منذ وقعت يذكرونها، شيخ الإسلام بلا عدد، ابن القيم، كذلك الذهبي في العلو وفي آخرين وليس لواحد منهم إنكار.

ومن أنكرها أنكرها سنداً قال: ولا تثبت معنى إذ فيها نكارة وهذه النكارة قالوا خالد القسري لم يكن ذا صلاح. وهذا غير صحيح من جهة أنه قد يكون فاسقاً في نفسه لكن لا يرضى بهذا الكفر، ولهذا الحجاج قتل الخوارج، وقتل الروافض وهو رجل جبار سافك دماء، ولهذا قتلة عثمان من الذي قتلهم؟ الحجاج بن يوسف حتى قتل آخرهم هو، رجل تستر بذلك الأمر حتى انكشف أمره فقتله الحجاج، والبدعة كانت ضعيفة جداً في عهد الحجاج.

فليس هذا دليلاً يجعل القصة تُنكر، والقصة إذا تابع أهل السنة على ذكرها بلا نكير دل على أن لها أصلاً، ثم هب أنها لا تثبت، من قال هذا كافر قطعاً لأنه ينكر أمراً ظاهراً في النص.

الميزان

[والميزان حق]

هنا ذكر أمراً آخراً من مسائل الغيبيات وهو الميزان وقوله: الميزان حق. أي: الميزان حق ثابت في شرعنا، وقد جاءت به النصوص ولا نستريب طرفة عين في إثباته إذ هو من الأمور الغيبية التي تُثبت بل جاء في بعض روايات حديث جبريل عليه السلام أن النبي ﷺ لما ذكر أركان الإيمان قال: «**وتؤمن باليوم الآخر والميزان والصراط**» إذاً جاء إثباته في حديث جبريل في بعض الروايات.

المسألة الأولى: الميزان جاء في القرآن مجموعاً ومفرداً، أي بصيغة الجمع، وبصيغة الإفراد قال بعض أهل العلم وقد ذكر هذا الشيخ عبد الرحمن خليف رحمه الله في كتابه العظيم مشاهد الناس يوم القيامة، وهذا كتاب حسن وجمع مبارك، جزاه الله خيراً ورحمه الله رحمة واسعة.

قال في هذا الكتاب فائدة حسنة أنسبها له لأنني لم أقف عليها عند غيره وربما نقلها هو لكن أنا وقفت واستفدتها منه، ومن بركة العلم أن ينسب القول لقائله وقد قيل:

إذا أفادك إنسان بفائدة ... من العلوم فأجزل شكره أبدا

وقـــل فـــلان جـــزاه الله صـــالحة أفادنيهـــا وخـــلي اللـــوم والحســـد

لأن الميزان يطلق على العدل، ويطلق على الميزان الحسي الذي يكون يوم القيامة ضابط معرفة هذا في القرآن أن ما جاء مجموعاً فيُقصد به الميزان الحسي وما جاء مفرداً يقصد به الميزان العدل قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾ الرحمن: ٧ المقصود به هنا العدل، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ الأنبياء: ٤٧ المقصود بها موازين الحسية يوم القيامة، وهذا ضابط نافع جداً في فهم كلام الله تعالى.

المسألة الثانية: اختلف السلف في عدد الموازين يوم القيامة فبعضهم قال: هي موازين بعدد الأشخاص الموزونين. وبعضهم قال: لكل أمة ميزان. وبعضهم قال: هو ميزان واحد يوزن فيه الكل. والخلاف قوي في هذا الباب ولعل القول الأخير هو أقربها والله أعلم.

المسألة الثالثة: أيضاً مما اختلف فيه السلف هو ما الذي يُوزن يوم القيامة؟ هل هو العمل؟ هل هو صاحب العمل؟ هل هو صحائف العمل؟ هل هو تارة هذا، وتارة هذا؟ أو هل هو الجميع؟ والقول الرابع، هو القوي لأنه جمعاً بين النصوص، لأنه قد أعمل كل النصوص، القول الخامس أعمل كل النصوص لكنه زاد أمراً وهو قال الدليل هذا على أن الكل يوزن في نفس الوقت، لنفس الشخص، والعلم عند الله تعالى.

لكن أقرب الأقوال الرابع والخامس، أي إما مرة هذا ومرة هذا باعتبار الناس، أو أن الكل يوزن والقول الأخير هو الذي عليه جماعة من المعاصرين واختاره شارح طحاوية ابن أبي العز في كتابه العظيم.

المسألة الرابعة: الميزان متى يكون؟ بعد الحساب لماذا بعد الحساب؟ لأن الحساب يكون للتقدير والميزان يكون لتحديد المقادير، الحساب للتقدير هذه لك وهذه عليك، طيب إذا علمنا ما لك وما عليك نزنه حتى نعلم مقداره فالأول للتقدير والثاني لبيان المقادير.

المسألة الأخيرة: هل يوضع للكفار ميزان؟ والجواب أن هذه المسألة مما اختلف فيها أهل العلم، ونظيرتها مسألة هل يُحاسب الكفار، وبيانها أن تعلم بأنه إذا قُصد بالميزان الميزان الذي يُراجح بين الحسنات والسيئات فهذا ممتنع في حق الكفار إذ لا حسنات لهم.

والثاني إذا قُصد بالوزن بأنهم يوزنون فيخف ميزانهم والله تعالى يقول: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ الكهف: ١٠٥ ليس المقصود به نفي الوزن أصلاً وإنما المقصود نفي قيمة ذلك الوزن إذ هم ليس لهم عند الله وزن، كما لم يكن للدين في هذه الدنيا في قلوبهم وزن فليس لهم عند الله جل وعلا يوم القيامة وزن، وهذا القول أقرب فالكفار يُنصب لهم ميزان ويزنون لمزيد إقامة الحجة.

والمسائل في هذا الباب كثيرة وقد كُتبت فيها كتب مفردة وقد فصلت مباحث هذا الأمر في كتابي عدة الباحث من شاء منكم فليراجعه.

السمع والطاعة لولي الأمر

[وسلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار، والجهاد مع الأئمة وإن جاروا، والحج معهم وإذا كان الإمام عدلاً لم ينبغِ للناس أن يتولوا تفرقة زكاتهم ووجب عليهم دفعها إلى الإمام]

انتقل هنا إلى مسألة أخرى وهي مسألة السمع والطاعة وهي مسألة عظيمة جليلة سبب الجهل بها، أو التنكب لها، أو محادتها في الأمة قلاقل منذ قامت لم تقعد فمنذ أن وُضعت السيف في خلافة عثمان لم يُرفع عن هذه الأمور ولن يُرفع، هذا السيف الذي وقع إنما وقع بسبب هذه الفتنة وهي الاختلاف على السلطان المسلمين.

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله هنا والكلام ينقله القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك قال: وسلطان جائرٌ. فالكلام ليس في السلطان العادل إذ السلطان العادل لا يختلف فيه رجلان، يعني بعض الناس، يقول كلام السلف إنما هو في حاكم عادل غير صحيح لأن العادل لا تحتاج أن تكلم الناس بأن يسمعوا له ويطيعوا، لأن المحك في الجائر، أما العادل باين، فالكلام كله في الجائر.

قال: سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار. ساعة واحدة من النهار بلا حاكم أسوأ من سبعين سنة، شوف أنت سبعين سنة كم فيها من ساعة حتى تعلم المقارنة بين الجهتين، وأذكرُ تونس بعد الثورة ماذا وقع في الأيام الأولى لما كان الناس يحرسون بيوته، أما الآن لا أحد يحرس بيته، الناس آمنون من حيث الإجمال.

كان الناس في العراق في العصر الحديث هذا آمنين، مع أن الحاكم لا يخفى عليكم حاله وما كان عليه، لما ذهب هو وقع في أيام ما لم يرق دماً في العراق لمدة عشرات سنين من الحكم، ولا أريد أن أكثر من ضرب الأمثال التي لا تخفى على عاقل وإنما ينكرها إلا مكابر لأن الحاكم الجائر يدفع الله جل وعلا به من الشرور ما لا يخفى، ثم إذا مات حسابه على الله في جوره وظلمه على الناس.

ولهذا قال هنا: خير من أمة سائبة ساعة من نهار. ولهذا رُوي عن عمرو بن العاص أنه أوصى ابنه عبد الله بن عمرو ﷺ فقال له: إمام عادل خير من مطر وابل وأسد خطوم، خير من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم.

لا شك أن الإمام العادل هو المرجو، وخير من مطر وابل لكن حكمة الله تأبى أن يتولى علينا في هذا الزمن من أمثال عمر بن عبد العزيز أو ما هو أعلى منه وهو معاوية فضلاً عن عثمان وعلي، فضلاً عن أبي بكر وعمر كما قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: سنن الله الكونية تأبى هذا والذي يطلب هذا لم يفهم لا سنن الله الشرعية ولا سنن الله جل وعلا الكونية، قال ابن المبارك:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... منه بعروته الوثقى لمن دانا
كم يدفع الله بالسلطان معضلة ... في ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الإمامة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

لكانت غابة يأكل القوي فيها الضعيف، قال ابن عبد البر في التمهيد وله كلام حسن في هذا الباب قال: مفارقة الجماعة وشق عصى المسلمين والخلاف على السلطان المجتمع عليه يريق الدم ويبيحه، ويوجب قتال من فعل ذلك.

قال القرطبي أبو عبدالله في تفسيره: والصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، ثانياً إراقة الدم، ثالثاً انطلاق أيدي السفهاء، رابعاً شن الغارات على المسلمين، خامساً الفساد في الأرض.

قال المعلمي في التنكيل: وقد جرب المسلمون الخروج فلم يروا منه إلا الشر. ولهذا ذكر الشيخ الإسلام جماعة ممن خرج من السلف وكان فيهم صلاح عظيم وتقوى وإيمان قال: فلم يقيموا ديناً ولم يبقوا على دنيا. ولهذا قال الشيخ الإسلام في منهاج السنة: والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء والواقع أكبر شاهد على هذا الأمر.

ثم قال: والجهاد مع الأئمة وإن جاروا، والحج معهم. وهذا عند ابن أبي زمنين في أصول السنة، قوله هنا: الجهاد والحج. لماذا يذكر دائماً العلماء الجهاد والحج مع

أئمة الجور؟ طبعاً مع أئمة العدل لا خلاف فيه، لكن بعضهم قال إذا كان الإمام جائراً لا أحج معه، ولا أجاهد معه.

ذكر السبب ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية فقال: الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما ويقاوم فيهما العدو وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر. ولهذا وقع من الغزو والفتح في عهد الحجاج الشيء الكثير مع العلم أن هذا رجل جبار جائر.

إذاً الجهاد والحج عبادتان تحتاجان إلى السفر، ولابد للناس من سائس يقود الناس وهذه تحصل بالفاجر كما تحصل بالتقي، والشريعة لا تشترط دائماً أن يكون الذي يقوم به الفعل، والذي يقوم بفعل أن يكون كاملاً في نفسه ولهذا لما سُئل الإمام أحمد رحمه الله وقد ذكر هذا شيخ الإسلام في السياسة الشرعية، عن قول الله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ القصص: ٢٦

قالوا للإمام أحمد هل نضع القوي الأمين دائماً؟ قال الإمام أحمد: لا، إذا كان الأمر متعلقاً بحفظ صدقات المسلمين أيهما تختار؟ الأمين، لأن القوي الأمين في الخلق قليل، فإذا لم تجده فخذ الأمين، قال الإمام أحمد: وأما في الجهاد فلو لم يكن أميناً فإننا نحتاج القوي.

إذاً الشريعة جاءت بأمور يسدها الفاجر كما يسدها التقي حفظاً للناس ليس المسألة النظر إلى تشريف ذلك الحاكم، لأن ذلك الحاكم الجائر والأمير الجائر حسابه

عند الله جل وعلا عظيم، لكن الشريعة رأت أن هذا الجائر تستقيم به أمور الشريعة ولجوره لو خُرج عليه سُفكت الدماء المسلمين فحُفظت دماء المسلمين وقاوم هذا الرجل العدو وهذا المعنى متحقق كما قلت لكم في العادل والجائر.

ثم قال: وإذا كان الإمام عدلاً لم ينبغِ للناس أن يتولوا تفرقة الزكاة ما وجب عليهم دفعها إلى الإمام. أي: لا ينبغي الافتيات على ولي الأمر والحاكم بأن تُجمع وأن تعطى الزكوات لغيره، وإنما يجب دفعها إلى الإمام إذ هو الذي قد وكله الشارع على ذلك الأمر، فإن أحسن فلنا وله، وإن أساء فعليه وليس علينا، وقس على الزكاة كل الأموال التي يتصرف فيها الحاكم.

وهذا الباب باب عظيم والكلام فيه يطول لكن ما ذكر الإمام مالك هنا يكفي للعاقل وصاحب اللب في هذه المسألة.

الإيمان بالقضاء والقدر

[والفواحش قدرها الله علينا قبل أن يخلقنا ولابد لمن كتب الله عليه ذلك أن يعملها ويصير إلى ما قدر عليه وكتبه، وما أضل من كذب بالقدر لو لم يكن عليهم فيه حجة إلا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ التغابن: ٢ لكفى به حجة وأبين آية على أهل القدر وأشدها عليهم قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة: ١٣ فلا بد أن يكون ما قال، والقدرية هم الذين يقولون إن الله لم يخلق المعاصي، ومن قال من القدرية إن الله لم يعلم ما العباد عاملون حتى يعملوا فإنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا، والقدرية قوم سوء لا تكلموهم، ولا تجالسوهم، ولا تناكحوهم ولا تصلوا على موتاهم، ولا تتبعوا جنائزهم، ولا تعودوا مرضاهم، ولا تسلموا عليهم ولا تصلوا خلفهم، وعادوهم في الله، يقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ فلا توادوهم وما رأيت أحداً من أهل القدر إلا أهل سخافة، وطيش، وخفة]

عظيم كلام الإمام مالك رحمه الله في باب آخر وفي ركن آخر من أركان الإيمان وهو الركن السادس من أركان الإيمان، هو الإيمان بالقضاء والقدر، أو الإيمان بالقدر

خيره وشره، ثم ذكر جملة من الآيات التي ترد على أهل القدر.

وحاصل هذه الآيات أو المعنى المراد بأن الله جل وعلا خلق الناس وقدر عليهم ذلك الأمر، وتقدير الله جل وعلا إنما هو لكمال علمه لا لإجباره للخلق ولهذا ذكر بعدها: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة: ١٣.

فالذين يملؤون جهنم هم ناس استحقوا جهنم، لأن القاعدة في باب القدر يا إخوة أن من وجه وجهه لله بصدق يسر الله تعالى له سبيل الجنة، من دخل جهنم لم يوجه وجهه لله جل وعلا بصدق، ولهذا هنا ذكر قال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ التغابن: ٢ فالله جل وعلا خلق الخلق وهو بهم عالم فهذا يدل على مرتبة العلم وهذه كُتبت في مرتبة الكتابة.

ثم بيّن المشيئة قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ السجدة: ١٣ ولهذا قال بعض أهل العلم: وقد وقف القدر عند علم الله وعلم الله في آية في سورة الأنفال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنفال: ٢٣ أي: الله جل وعلا إذا لم يسمع أحداً دل على أن عدم إسماعه هو الذي ينبغي أن يكون ولا يمكن أن يكون غيره.

لأن الله تعالى يعلم أنه لو أسمع هؤلاء لن يستجيبوا لأن الله خلق الخلق ويعلم من يستحق جواره، ومن يستحق أن يدخل جنته ومن لا يستحق أن يدخل جنته لكنه ترك الخلق في هذه الدنيا حتى تُقام عليهم الحجة.

ولهذا أهل النار لا يُكثرون الاعتراض بباب القدر ولو كان باب القدر حجة قائمة لصاح أهل النار به، لكنهم إنما يولولون وكلما دخلت أمة لعنت أختها ولا يقولون هذا قدر الله كُتب علينا وعُذبنا بغير ذنب هذا لا يقوله أحد إنما المؤمنون يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الأعراف: ٤٣ وأما الكافرون فإنهم يقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ الأحزاب: ٦٧ .

لا يحتجون بالقدر لأن الله جل وعلا انتهى علم الناس بالقدر إلى علم الله وأن الله هو الذي يعلم من يستحق الإيمان ومن لم يستحق لأنه أعلم بما يصلح في قلوب الناس وما لا يصلح، ولهذا قال أهل العلم: من وجه وجهه لله بصدق كان من أهل الجنة، ومن لم يوجه وجهه لله بصدق كان من أهل النار. ولهذا أنت ترى من قلبك وقت الإقبال، ووقت الإدبار، ولا مرة قمت وقلت أريد ولا أستطيع لا يمكن هل مرة قمت تريد ولا تستطيع؟.

نفسك لا تريد، شيطانك يوسوس إليك، هواك قد غلب عليك، لكن الله جل وعلا قد يسر لك هذا وهذا، فإن شئت قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ البلد: ١٠ فمن اختار هذا دخل الجنة، ومن اختار الآخر دخل النار هذا باب القدر.

ولهذا لما جاء ذلك اليهودي والكتابي مستدركاً على شيخ الإسلام، ويشكو أن الله كتب عليه الكفر ثم يدخله النار قال لو شيخ الإسلام رداً عليه بأبيات من نفس البحر على نفس القافية في تائية قدرية عظيمة شرحها عبد الرحمن بن سعدي في الدرة البهية، وشرحها جماعة آخرون من المعاصرين، وفيها من الحجج العقلية الشيء الكثير قال شيخ الإسلام في كلام له قال لهذا اليهودي:

وهبك كففت اللوم عن كل كافر وكل غوي خارج محجة

يعني: هب أنك تقول كل كافر كتب الله عليه الكفر فلا يستحق المعاتبة:

فيلزمك الإعراض عن كل معتد على الناس في نفس ومال وحرمة

من اعتدى على أهلك لا تعب عليه، ومن كسر بيتك لا تعب عليه، ومن قتل ابنك لا تعب عليه لأن القدر حاكم على الكل، فإذا كنت لا تقبل حجة في متاع الدنيا فلا تقبلها في أمور الدين.

ولهذا القدر مبني على إما التسليم أو المكابرة، ولهذا يقول الطحاوي في عقيدته وقد مر لنا إقراؤها وشرحها في مجالس هنا قال: العلم علمان علم في الخلق موجود وعلم في الناس مفقود، فمن رام العلم المفقود ضيع العلم الموجود ولم ينل العلم المفقود. والعلم مفقود المقصود به علم الغيب والقدر، هذا باب لا تقتحمه فإنك لا تستطيعه.

ولهذا موسى عليه السلام أنكر على الخضر أموراً لأنه لم يحط بحقيقتها واستدرك مرة وثانية وثالثة حتى قال هذا فراق بيني وبينك لماذا؟ لأن موسى لم يطلع ولم يعلم بأن الأمر من عند الله قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ الكهف: ٨٢.

فإن العبد لا يمكن أن يصبر إذا كان يطلع على الأمور الغيبية ولهذا يقول ابن الوزير في أبيات الله حسنة يحكي هذا الحوار الشيق العظيم الذي قال فيه النبي ﷺ «**يرحم الله أخي موسى لو صبر لرأينا عجباً**» يعني: لو صبر لرأينا أمور أخرى يفعلها الخضر فيها من حكمة الله الشيء الكثير.

ومما قال ابن الوزير:

تسل عن الوفاق فربنا قد ... حكى بين الملائكة الخصاما
كذا الخضر المكرم والوجيه المكلم ... إذا ألم به لاما
تكدر صفو جمعهما مراراً ... فعجل صاحب السر الصراما
ففارقه الكليم كليم قلبه ... وقد ثنا على الخضر الملاما
وما سبب الخلاف سوى اختلاف ... العلوم هناك بعضاً أو تماماً

علوم اختلفت هنا، هذا علم من عند الله اطلعه على ذلك الغيب، وموسى الذي هو أشرف من الخضر بكثير بالإجماع لم يطلعه الله تعالى على ذلك الغيب قال:

وما سبب الخلاف سوى اختلاف ... العلوم هناك بعضاً أو تماماً
فكان من اللوازم أن يكون الإله ... مخالفاً فيها الأناما
فلا تجهل لها قدراً ... وخذها شكوراً للذي يحيي الأنام

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن القدرية هم الذين يقولون إن الله لم يخلق المعاصي وهو من المعتزلة أنكروا مسألة الخلق، والله يقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات: ٩٦ ثم ذكر كلاماً آخر من أقوال القدرية ثم ذكر أنهم قوم سوء لا تكلموهم ولا تجالسوهم ولا تناكحوهم، وقد رُوي عن الإمام مالك أنه جاءه رجل فقال له: أريد أن أتزوج قدرية. فقال له رحمه الله: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢١ لأن القدرية الذين أنكروا العلم لا شك في كفرهم.

ولهذا قال السلف: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصموا وإنهم أنكروه كفروا. وهؤلاء أتباع معبد الجهني وهم انقرضوا، وهم الذين قال فيهم ابن عمر رضي الله عنهما: لو أنفقوا ما في الأرض ذهباً لم يُتقبل منهم حتى يؤمنوا بالقدر. إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى في التحذير من هذا المذهب الرديء.

وهنا مهم كلام الإمام مالك لما قال: وما رأيت أحداً من أهل القدر إلا أهل سخافة، وطيش، وخفة. ولهذا من اللطائف التي ذُكرت أن رجلاً قدرياً مر برجل قد ضاعت دابته فقال: اللهم إن دابته قد سُرقت وأنت لم ترد سرقتها فردها عليه فقال الرجل ويحك يا أحمق إذا سُرقت منه ولا يريد سرقتها، فربما يريد ردها ولا ترد عليه.

فهم أجهل الناس بقدرة الله الباري، ولهذا جاء بعض أئمتهم فقال عند رجل من أئمة السنة قال: سبحان الذي تنزه أن يشاء الفواحش. يعني أن المعاصي كائنة بإرادة الله الكونية، فقال له: وسبحان الذي لا يكون في ملكه إلا ما يشاء سبحانه وتعالى.

فإن الله لا يقع شيء في ملكه إلا بإذنه غير أن المشيئة هي الإرادة الكونية والتي تُرادف المحبة هي الإرادة الشرعية، أما الإرادة الكونية فالله تعالى شاء الكفر وشاء الإيمان قال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ التغابن: ٢ : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ البلد: ١٠ والناس يختارون هذا وهذا، أما يوم القيامة ليس فيه معاصي لأنها دار الجزاء، ودار النقاء، وأما هذه فهي دار بلاء وعناء.

اعتقاد المسلم في الصحابة

[وخير هذه الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ أمره رسول الله ﷺ بالصلاة ومعه غيره، وأمره على الحج ومعه غيره، وأفضل الأمة بعد أبي بكر ﷺ عمر ﷺ وليس فيه مشك، ومحلهما من النبي ﷺ في حياته كمحلهما منه بعد وفاته وقد كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر ﷺ كما يعلمون السورة من القرآن.

وأفضل الأمة بعد أبي بكر وعمر الخليفة المقتول ظلماً عثمان ﷺ وهنا وقف الناس، هؤلاء خيرة أصحاب رسول الله ﷺ أمَّر أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عمر، وجعلها عمر على ستة فاختاروا عثمان، فوقف الناس هنا.

ومن شتم أحداً من أصحاب النبي ﷺ أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص فإن قال كانوا على ضلال أو كفر قُتل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نُكل نكالاً شديداً، ومن تنقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين لقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

﴿ الحشر: ٧ حتى أتى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا ﴾ الحشر: ١٠ الآية.

فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غل فليس له في الفيء حق، ومن أصبح وفي قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفتح: ٢٩ .

ومن سبب عائشة قُتل لأن من رماها فقد خالف القرآن لأن الله تعالى يقول: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ النور: ١٧ وإنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي ﷺ فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحاً كان أصحابه صالحين].

إذاً هنا جملة من كلام الإمام مالك رحمه الله وفيها قواعد عظيمة في باب الاعتقاد سيما في مسألة الصحابة وما يعتقده المسلم في صحابة النبي ﷺ ليس من أركان الإيمان الستة ابتداء، لكن أهل السنة والجماعة أدخلوه في أصول الاعتقاد من جهتين:

الجهة الأولى: لكثرة المخالف في هذا الباب حتى صار حب الصحابة شعاراً لأهل السنة، والقدح في الصحابة شعاراً لأعداء الله من أهل البدعة ولهذا يقول القحطاني:

حـــب الصـــحابة والقرابـــة ســـنة ألقـــــى بهـــــا ربي إذا أحيـــــاني

الجهة الثانية: أن العقيدة التي تُعتقد في الصحابة مما يدخل في الإيمان بالرسل لأن من الإيمان بالرسل الإيمان بصدق الرسل، وصدق الرسل فيما بلغوا، والذي نقل لنا الدين الذي تركه الرسل هم أصحابهم، وأعظم أصحاب الأنبياء أصحاب النبي ﷺ فهو داخل في هذا الركن من باب التضمن.

قال هنا: وخير هذه الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ أبو بكر الصديق. ثم ذكر وجه تلك الخيرية قال: أمره رسول الله ﷺ بالصلاة ومعه غيره، وأمره على الحج ومعه غيره. وهذا يدل على إمامته في الدين وأنه هو الأفضل فإن النبي ﷺ مع وجود سائر الصحابة إنما جعل هذا الفضل وهذه الإمامة لأبي بكر دل على أنه هو الأحق بذلك الأمر وهو الأفضل.

ثم بين أن بعد أبي بكر في الفضل يكون عمر وهو الخليفة بعده وهذا أمر لا خلاف فيه بين المسلمين لأنهما كما قال الإمام مالك رحمه الله: محلهما في حياته كمحلهما منه بعد وفاته. فهما ضجيعاه في القبر، النبي ﷺ، بعده أبو بكر، بعده عمر وهكذا هم في الدنيا كانوا وهكذا هم يوم القيامة، إذاً هم أصحابه في الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة وهذا لا يشك فيه إلا مرتاب مندس، وإلا هذه حقيقة ظاهرة.

ولهذا قال: وكان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمون السورة من القرآن. بل أبناء علي رضي الله عنه فيهم أبو بكر، وفيهم عمر، وإمامة هذين

الرجلين أمر استقر عند المشركين كما استقر عند المؤمنين، ولهذا لما انقضت أحد نادى أبو سفيان قال: أفيكم محمد؟ قال: «**لا تجيبوه**» قال: أفيكم أبو بكر؟ قال: «**لا تجيبوه**» قال: أفيكم عمر؟.

قال ابن القيم في زاد المعاد، ومن بعده الحافظ ابن حجر في فتح الباري قالوا: وهذا دليل قطعي على أن إمامة الشيخين في الدين أبو بكر ثم عمر أمر مستقر عند الكافرين قبل المسلمين. لأن أبو سفيان بعدها قال: إن كان هؤلاء قد قُتلوا فقد كُفينا القوم. فهو أمر لا يرتاب فيه أحد.

ولهذا لم يسأل لا عن عبد الرحمن بن عوف وهو من المبشرين، ولا عن بلال ولا عن غيره إنما سأل على النبي ﷺ عن أبي بكر وعن عمر لأنه قد استقر عند القوم أن رأس هذه الأمة نبيها ثم أبو بكر ثم عمر، وهذه حجة عظيمة ظاهرة جاءت من رجل وهو كافر في ذاك الوقت.

قوله هنا: كانوا يعلمون أبناءهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمونهم السورة من القرآن. وهذا يدلنا على أمور:

الأمر الأول: يدل على التكرار.

الأمر الثاني: يدل على الاستقرار.

الأمر الثالث: يدل على الاستذكار.

أنك شيء تجعله كالسورة يدل على أنك تكرره صح، كذلك يدل على أنه قد استقر، كذلك يدل على أنهم كانوا يذكرون بهذا يوماً بعد يوم من العلم الذي لا ينبغي أن يُنسى.

ولهذا قال جابر في البخاري: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن. قوله: كما يعلمنا الصورة من القرآن يدل على الذي ذكرت لكم على التكرار، وعلى الاستقرار، وعلى الاستذكار يعني يُكرر حتى يستقر، فإذا استقر ينبغي أن يُستذكر حتى لا ينسى.

قال: وأفضل الأمة بعد أبي بكر وعمر الخليفة المقتول ظلماً وهو عثمان رضي الله عنه. وعثمان رضي الله عنه قُتل ظلماً كما لا يخفى عليكم قتله الخوارج في يوم الدار وكان عمره قد جاوز الثمانين، وهو الوحيد الذي تزوج بنتين نبي، وهو من أول من هاجر بعد لوط عليه السلام وإمامته في الدين أمر لا يخفى، وهو الذي اشترى الجنة بماله أكثر من مرة رضي الله عنه.

ولهذا قال هنا: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان. قال أبو بكر ابن أبي داود في حائيته:

وقل إن خير الناس بعد محمد وزيراه قدماً ثم عثمان الأرجح

ورابعهم خير البرية بعدهم علي حليف الخير بالخير منجح

ثم قال الإمام مالك رحمه الله: وهنا وقف الناس. أي إلى هنا انتهى التفضيل هؤلاء خيرة أصحاب رسول الله ﷺ ثم ذكر فضل أبي بكر وعمر ثم قال: وجعلها عمر على

ستة فاختاروا عثمان. فوقف الناس هنا، إذاً ظاهر هذا الكلام الإمام مالك رحمه الله بأنه يفضل أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان ولم يذكر علي رضي الله عنه هنا لأن النص لم يره ظاهراً.

ولكن تفضيله لعثمان هنا يدل على أن الذي بعده علي إذ الأمة مجمعة على أن أفضل الناس بعد عثمان، إنما هو علي وإنما وقع الخلاف هل عثمان أفضل من علي أم لا مع اتفاقهم بأن الخلافة إنما هي ثابتة لأبي بكر بالاتفاق، ولعمر بالاتفاق، ثم لعثمان بالاتفاق، ثم لعلي بالاتفاق، ولهذا يقول الشيخ الإسلام في الواسطية: ومن خالف في مسألة الخلافة فهو أضل من حمار أهله. وإنما الخلاف وين وقع في تفضيل عثمان على علي.

فإن قال قائل إذا كان هو قبله في الخلافة وهو أفضل لا يجوز أن يترأس المفضول على الفاضل والنصوص في هذا كثيرة، ولهذا لما ترأس معاوية رضي الله عنهم كان من الصحابة منهم أفضل منه بالإجماع من المبشرين، ومن السابقين الأولين، إذاً الخلاف وقع في التفضيل بين عثمان وعلي.

فقول الإمام مالك: ثم عثمان. يدل على أن الذي بعدهم هو علي والذي رُوي عن الإمام مالك في هذا روايتان:

الرواية الأولى: على أنه توقف ولم يفضل عثمان على علي إذ لم يظهر له النص وقد جاء في البخاري أن ابن عمر قال: كنا نفاضل بين الصحابة على عهد رسول الله ﷺ فنقول أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان. وجاء في رواية أبي داود

للحديث: والنبي ﷺ يسمع ذلك ولا ينكر علينا. وإن لم يسمعه فهو أمر شائع وتأخر البيان عن وقت الحاجة لا يجوز فهو أمر ظاهر.

الرواية الثانية: هي التي ذكرها القاضي عياض في إكمال المعلم وهي أن الإمام مالك استقر أمره على أن عثمان أفضل، وهو المذكور هنا، ولهذا ابن أبي زيد القيرواني في مقدمة الرسالة لم يذكر إلا قولاً واحداً وهو أن أفضل الأمة أبو بكر، ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وهذه المسألة ليس مما يُضلل فيها المخالف مع العلم أن الإجماع قد نُقل فيها وممن نقل الإجماع المزني في شرح السنة، فإن قائل كيف نقل المزني الإجماع؟ المزني ذكر الصحابة في فضلهم بالترتيب ثم قال في آخر شرح السنة: وهذه المقالات قد أجمع عليها الأئمة من السلف. فكل ما ذكره المزني في شرح السنة يصلح أن تنقله إجماعاً والمزني من القرون الأولى، وهو من أخص طلاب الشافعين في القرن الثالث رحمة الله تعالى عليه.

إذاً عثمان ثم علي، ومر معنا لو تذكرون في السفارينية قول السفاريني في مدح علي قال عنه:

وافي الندى مبدي الهدى مردي العدا ... مجلي الصدا يا ويل من فيه اعتدى
فحبه كحبهم حتماً وجب ... ومن تعدى أو قلا حتماً كذب

في بيتين ذكر ما يُذكر في نصوص كثيرة خلاصة الأمر في هذين البيتين رحمه الله.

ثم قال: ومن شتم أحد من أصحاب النبي ﷺ أبا بكر، أو عمر، أو عثمان أو معاوية أو عمرو بن العاص فإن قال كانوا على ضلال أو كفر قُتل وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نُكل نكالاً شديداً. وهنا نتكلم على مسألة أخرى وهي مسألة سب الصحابة.

وقد أحسن القاضي عياض في كتابه الشفاء في آخره في هذه المسألة وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الصارم المسؤول استفاد كثيراً من القاضي عياض في الشفاء ونقل كلامه بالحرف، نقل في مسألة سب الصحابة وسب نساء المؤمنين وغيره.

إذاً هنا الإمام مالك قسم السب إلى نوعين:

النوع الأول: من قال إنهم قد كفروا أو أنهم على ضلال في دينهم أي قدح فيهم في دينهم فهذا يُقتل، وينظر في قتله هل هو ردة، أو حد على خلاف، لكن الأقرب بأن من كفر من ثبت النص في فضله فهذا كافر لأن كفره راجع إلى رد النص، النبي ﷺ يقول هم في الجنة وهو يقول قد ارتدوا هذا قطعاً كفر أكبر.

النوع الثاني: من شتمهم في أمر دنيوي يقول كان في بعضهم جشع، حب تسلط قبول للمال، رشوة أو شيء من هذا، هذا دون الرمي بالكفر لكنه فسق عظيم وموجب للتعزير ولهذا قال: نُكل به نكالاً شديداً. وقد يصل التعزير إلى القتل وغالباً

والتجربة بيّنت هذا وصدقته أخبار الحياة أن من بدأ بالسب في الدنيا انتهى به السب والقدح في الدين، ومن بدأ بمعاوية انتهى بأبي بكر هذه قاعدة.

ثم ذكر قولاً أعم من الذين ذكرهم، فذكر أن من تنقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ أو كان في قلبه غل فهو ليس له نصيب في الفيء لأن الفيء منوط بمحبتهم والاستغفار لهم فالذي جاء بعدهم وسبهم وشتمهم لا يدخل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ الحشر: ١٠.

ولهذا قال سعد بن أبي وقاص لما كثر القدح في بعض الصحابة قال إن الله تعالى يقول في الحشر ـ في المهاجرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ الحشر: ٨ قال: وهؤلاء قد مضوا وولوا، ثم ذكر الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ الحشر: ٩ قال والأنصار قد مضوا وولوا هؤلاء مهاجرون صادقون، وهؤلاء أنصار مفلحون ولن تكون لا من المهاجرين ولا من الأنصار هؤلاء انتهوا، قال بقي لك قسم ثالث وهو المذكور بعدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الحشر: ١٠ .

إما أن تكون من هؤلاء أو أنت هالك، المهاجرون صادقون والأنصار مفلحون والذين جاءوا من بعدهم إما هم مستغفرون وهم ناجون، وإما هم سابون وهم

هالكون هذا هو، ثم وهذه القولة مشهورة عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لا يكاد يخلو منها الكتاب من كتب الاعتقاد المطولة.

ثم ذكر أن من كان في قلبه غل على أحد من أصحاب النبي ﷺ فقد أصابته هذه الآية والمراد من هذه الآية قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الفتح: ٢٩ وهذا داخل على أن الذي في قلبه تغيظ على أصحاب النبي ﷺ ما كان ليسلم من الكفر سيما التغيظ العام كما هو ديدن الروافض.

فإن الروافض متغيظون على الصحابة عموماً بل يحكمون بردتهم جميعاً سوى خمسة أو ستة، وهذا كفر باتفاق المسلمين ومن قواطع الملة ونواقض الإسلام.

ولهذا يقول ابن أبي داود:

وقل خير قول في الصحابة كلهم ... ولا تك طعاناً تعيب وتجرح

فقد نطق الوحي المبين بفضلهم ... وفي الفتح أي للصحابة تمدح

أي: هذه الآية، ثم انتقل إلى أمر آخر وهو تابع للصحابة لكنه يذكر انفراداً لأهميته وعظمه وهو سب أزواج النبي ﷺ، وأمهات المؤمنين وعلى رأسهم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: ومن سب عائشة قُتل لأن من رماها فقد خالف القرآن لأن الله جل وعلا

يقول: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ ﴾ النور: ١٧ وهو سب عائشة، والقدح في عرضها: ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ النور: ١٧ .

فالعود لسب عائشة بعد أن برأها الله تعالى من ذلك كفر أكبر باتفاق المسلمين وإنما وقع الخلاف في هل تُلحق سائر نساء النبي ﷺ بعائشة أم لا؟ بعضهم يحكيه خلافاً لكن القاضي عياض ذكر في آخر الشفاء الإجماع على أن أي زوجة من زوجات النبي ﷺ إذا نيل من عرضها حكمها حكم عائشة وهو كفر مستقل وهذا الإجماع معتبر،

القاضي عياض نقل الإجماع في هذا، وكتاب الشفاء كتاب جليل القدر، عظيم النفع عيب على طالب العلم أن لا يكون له به اهتمام، لا أقول قراءة فهذه تكون للعامة، بل اهتمام ومن اهتمام المالكية به كتب عبد الحي الكتاني رحمه الله صاحب فهرس الفهارس والتراتيب الإدارية، المدخل لدراسة الشفاء وعليه شرحان عظيمان أقلهما حجماً شرح الملا علي القاري مطبوع في مجلدين.

وأكبرهما، وأعظمهما، وأنفعهما على توسع فيه نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض للخفاجي رحمه الله وشرحه مطبوع في ثمانية أجزاء أظن أو شيء من هذا بحسب الطبعات وهو كتاب حافل بكل ما تحمل الكلمة من معنى وهذه كتب لا تخلو منها مكتبة طالب العلم.

ثم ذكر الغاية من سب الصحابة، والغاية من سب الصحابة كما قال إمام مالك رحمه الله: فإنه لم يمكنهم ذلك. أي القدح في النبي ﷺ مباشرة فقدحوا في أصحابهم لأن القدح في الناقل قدح في المنقول ولهذا قال أبو زرعة الرازي: هؤلاء أرادوا إسقاط الكتاب والسنة ولكنهم لم يستطيعوا فجرحوا النقول والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

ولهذا ذكر اللالكائي في شرح السنة أن أحد أمراء المسلمين جمع رجلين كانا مشهورين بسب الشيخين أبي بكر وعمر فقال: لأحدهما اصدقني القول وإلا ضربت عنقكما ما الدافع لكما لسب الشيخين؟ فقال الأول: نسبهما لأننا لا نحبهما وهما قد أخذا الخلافة من علي، فضرب عنقه فقال: للثاني إذا كنت لا تريد مصير صاحبك فاصدقني القول قال والله إننا نريد إسقاط الكتاب والسنة، لكننا لم نقدر على ذلك فسببنا الشيخين ثم نمر إلى سائر الصحابة ونسقط كل الدين لأنهم زنادقة كما قال أبو زرعة الرازي.

وقد ذكر الشوكاني رحمه الله شيئاً كثيراً من هذا الأمر لا يتسع المقام لذكره وقد جمع بعض المعاصرين كلام الشوكاني في هذا الباب سماه ذب الإمام الشوكاني عن أصحاب النبي سلم العدناني، وجمع فيه كلام الشوكاني وهي رسالة لطيفة حسنة تُقرأ في هذا الباب، ذكر فيها الشوكاني الداعي لسب الصحابة عند هؤلاء القوم.

وهنا كلام الإمام مالك رحمه الله عظيم ونحوه عند أحد أئمة المالكية وهو أبو بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم، وهو من أعظم ما كُتب إلى الآن في ما

وقع بين الصحابة، لم يكتب أحد بهذا الإنصاف، لم يكتب أحد بسلامة صدر كما كتب أبو بكر ابن العربي المعافري الإمام المالكي المعروف في هذا الكتاب.

هذا الكتاب من كتب الإسلام لم يكتب مثله ومن جاء بعده إنما هو ناقل مستفيد منه وأكرر عيب على محبٍ للصحابة أن لا يقرأ العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي رحمه الله والكتاب قد طُبع كاملاً طُبع قديماً غير كامل، ثم طبع طبعة فيها النص الكامل منها هذا أنه قال: أن اليهود لو سألتهم عن أفضل أقوامكم لقالوا أصحاب موسى، والنصارى يقولون حواري عيسى، والشيعة من أخبث قومكم؟ يقولون أصحاب محمد.

ولهذا الإمام مالك ذكر هذه الحجة العقلية القوية أن الذي يحيطه الله بعصابة من الأشرار بهذه الطريقة وهم عدتهم بالآلاف ولا يصفو لك منهم إلا خمسة وهم آلاف هذا لا يمكن هذا يدل على أن ـ والعياذ بالله من قولهم ـ الذي أرسل إليهم رجل سوء مثلهم هذا الذي يريدون، لكنهم لا يجرؤون على القدح في النبي ﷺ فقدحوا في أصحابه.

ومن بدأ بسب معاوية فسينتهي بالأمر إلى سب الشيخين، إلى إسقاط الكتاب والسنة، من بدأ بسب أبي هريرة سيسقط الشيخين، وسيسقط الكتاب والسنة وشواهد الحق في هذا كثير لا تحتاج، فتش حولك ترى.

وأختم بأمر ما تلوث أحد بسب أصحاب النبي ﷺ إلا رأيت عجائب قدرة الله تعالى فيه عاجلاً غير آجل، وفي البخاري «**من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» كيف بمن عاد سادات الأولياء، وخير الناس بعد الأنبياء؟ تأمل ترَ، انظر حولك ستجد لم يسلم أحد قدح في الصحابة لا في دينه وهذا قطعاً، ولا في دنياه حتى دنياه لا تبقى.

حتى قال الشوكاني: ما رأيت أحداً من الزيدية مالئ دين الروافض إلا رأيته فقيراً بعد أن كان غنياً ومقموءاً ذليلاً بعد أن كان عزيزاً. هذا الشوكاني عاشرهم يذكر هذا الكلام.

حكم سب النبي أو التنقص فيه ﷺ

[ومن سب النبي ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقصه أو غيره من النبيين قُتل مسلماً كان أو كافراً ولا يستتاب]

جَعْلُ الجامع هذا الكلام للإمام مالك رحمه الله وهو موجود في كتب المالكية أظن قرأت مثل هذا النص في البيان والتحصيل لابن رشد الجد فهو مبثوث، وليته نقله من أصول المالكية، وهذا عمل حسن منكم طلاب العلم، من أراد أن ينقل هذه النقول من كتب المالكية يكون أعظم وأنفع حتى لا يقول ويستدرك علينا مستدرك يقول أنتم تنقلون كلام الإمام مالك من غير أئمة المذهب.

هذا الكلام الذي نقله هنا عن رسالة جامعية معروفة، وهي حسنة موجودة قرأت بعضه في البيان والتحصيل لابن رشد، فنقله عن الأصول دائماً أحسن لكنه ليس مالكياً فلا تستغرب من هذا، لكن الجمع حسن.

فجعله هنا حسن لأن أصحاب النبي ﷺ كما قلت لكم تابعون للنبي ﷺ وإدراج الصحابة في أصول العقيدة تابع لركن الإيمان بالرسل، ولهذا ذكر بعدهم من سب الصحابة، فعرفنا حكمه، من سبب سادات الصحابة، وأنبياء الصحابة وهو النبي ﷺ وسائر المرسلين حكمه أعظم.

ولهذا قال: من سب النبي ﷺ أو شتمه، أو عابه، أو تنقصه، أو غيره من النبيين قُتل. وهنا لا يقول واحد كما قلنا في الصحابة يُفرق بين الدين والدنيا، النبي يا إخوة ليس مجرد السب، مجرد التعريض يبيح دم العبد عند الحاكم المسلم، والمالكية من أشد الناس في هذا.

بل كان بعض الشعراء قديماً في المهدية وفي القيروان عرض بالنبي ﷺ قتله الحاكم وتركه مصلوباً يراه الناس كل يوم قال: حتى يعتبر به الخلق.

ولهذا أذكر لكم قصة أن والد محمد شاكر وكان والده حنفي المذهب، وكان أحد خطباء الأزهر معظماً في الأزهر، وكان خطيباً فلما ذهب طه حسين إلى أوروبا وهذا ذكره أحمد شاكر في كتابه الكتابة كلمة حق، مطبوع في مجلد كبير، قال: لما ذهب طه حسين إلى أوروبا واحتفى برجوعه إما الملك فاروق أو والده نسيت لعله والد الملك فاروق، لما عاد قام هذا الخطيب في الناس وقال وهذا ملكنا قد جاءه الأعمى فما عبس وما تولى، يعرض بالنبي ﷺ، الخبيث.

قال والد أحمد شاكر للناس وكان حنفياً يرى أنه إذا كان قال الإمام هذا صلاة الناس كلها لا تصح، فقال خطيبكم كفر ولا تصلوا معه قال أحمد شاكر، ابن محمد شاكر وأبوه كما قلت لكم كان قاضياً حنفياً قال: ما مرت سنيات قليلة إلا رأيت هذا الرجل مطروداً من الأزهر مقموءاً ذليلاً، بعد أن كان خطيباً في الناس صار يجمع

أحذية الناس ويعطونه الفلس والفلسين حتى يعيش، خسر الملك فاروق وخسر والده وخسر كل الناس لأنه عرض بالنبي ﷺ، بهذه الكلمة.

ولهذا الله ﷻ لما عاتب نبيه ﷺ يقول القاضي عياض في الشفاء: تأمل عتابه تجد أنه لم يعاتب أحد في البشر كما عُوتب النبي ﷺ. لماذا؟ لأن عتابه عظيم لأن الله تعالى قال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ التوبة: ٤٣ قال: فقدم المغفرة قبل العتاب. غالباً أنت تعاتب إنسان ثم تقول له عفوت عنك، الله غفر له ثم عاتبه.

ولهذا قال له ولم يقل لغيره: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الفتح: ٢ أي: يا محمد ما لم تفعله بعد مغفور لك قبل أن تفعله، فيأتي واحد يعرض به لا شك أنه كافر كفراً أكبراً، وما تعرض أحد للنبي ﷺ إلا قصمه الله عاجلاً غير آجل حتى كان أصحاب الفتوح قديماً يستغلق عليهم الحصن شهوراً فلا يُفتح قال: فإذا سبوا النبي ﷺ استبشرنا خيراً. لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ الكوثر: ٣ قال: فما تمر أيام إلا ويُفتح الحصن. وتأمل حولك تجد هذا.

وهنا قال: أو غيره من النبيين. حكم عيسى عليه السلام، وحكم موسى عليه السلام وحكم إبراهيم عليه السلام نفس الحكم، وهذا من عظمة ديننا لو كان النبي ﷺ طالباً للأمر لنفسه كان يفرق بين سبه وسب غيره، ولهذا القرآن هل ذُكرت فيه أزواج النبي ﷺ بالاسم؟ لا، إنما ذُكرت فيه مريم، بل ذُكرت فيه سورة باسم مريم ولم تذكر أزواج النبي ﷺ.

لم تذكر قصة لأزواج النبي ﷺ سوى مسألة التحريم، والطلاق، أو الأحزاب في التخيير، لكن ذُكرت قصة زوجة فرعون، وسارا، وهاجر، وقصة موسى، واليهود هم أعداء النبي ﷺ وخصومه في المدينة نبيهم يذكر أكثر من نبينا اسماً في القرآن.

النبي ﷺ ذُكر مرات قليلة، هذا من دلائل النبوة، لأنه لو كان يدعو لنفسه يجعل ألف سورة باسمه، ذُكر إبراهيم عليه السلام أكثر من سبعين مرة في القرآن، وموسى عليه السلام أكثر من سبعين مرة، والنبي ﷺ مرات قليلة جداً.

ولم يُذكر أصحابه إلا واحد ذُكر وهو زيد: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الأحزاب: ٣٧ حتى أبو بكر العظيم صاحبه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ التوبة: ٤٠ ولم يسمه ولو كان النبي ﷺ يقول القرآن من نفسه كان يسمي أبا جهل، ويسمي الوليد بن المغيرة ويسمي ويسمي، لا، إلا أبا لهب وسُمي وهو حي وكان يستطيع أبو لهب يقول سأسلم حتى أبين أن محمداً كاذب ولم يسلم.

أبو جهل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ العلق: ١٧ - ١٨ كان يستطيع أن يسلم عناداً ليبين أنه كذب ولم يسلم، الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ المدثر: ٢٦ كان يستطيع أن يسلم ولكنه لم يفعل، هذا كله من دلائل الصدق والحق.

ثم قال: مسلماً أو كافرا ولا يستتاب. وهذه مسألة عظيمة جداً أن ساب النبي ﷺ لا يستتاب، بينما من سب الله تعالى اختلف العلماء فيه، والأقرب أنه يستتاب فإن

قال قائل هل حق النبي ﷺ أعظم من حق الله؟ لا، الكل كفر لكن الله تعالى يعفو ورحمته سبقت عذابه بينما النبي ﷺ بشر حقه له، فإن عفا يوم القيامة وتجاوز فله.

وقولنا: لا يستتاب، لا يعني أنه لا يتوب، الاستتابة أمر في الظاهر فإن تاب تاب الله تعالى عليه لأن الله تعالى تاب على الصحابة وقد كانوا يعبدون الأصنام، وعمر على أحد الأقوال كان ذاهباً ليقتل النبي ﷺ لكنه أسلم، كثير من الصحابة جاء ليقتل النبي ﷺ قال: فلما نزع يده فإذا هو أحب الناس إلي. لكنهم تابوا.

لكن لا يُستتاب أي أنه إذا مُسك ساباً للنبي ﷺ يُقتل لأن حق النبي ﷺ لا يسمح فيه واضح لكنه لو تاب صادقاً فإن الله تعالى يغفر له.

الغلو في النبي ﷺ

[ولا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ويمضي- ولا يمس القبر]

وهنا بعد أن تكلم عن حكم سبه، تكلم عن حكم الغلو فيه، فنحن لا نريد الجفاء في النبي ﷺ ولا نريد الغلو، ولهذا بيّن الإمام مالك أنه يكره بأن العبد يقف عند قبره ويدعوه لأن هذا مظنّة أن الناس أن يفتتنوا فربما لو أُجيبت الدعوة عند القبر ربما بعضهم دعا حتى صاحب القبر، ويذكرون في هذا قصصا لا تصح بل ذكر بعضهم أن النبي ﷺ أخرج يده وصافحه من قبره ولا يستحي ويذكر هذا في كتابه والناس يصدقونه.

لأن حب النبي ﷺ يا إخوة إذا هاجم على القلب ولم تضبطه قوة الشرع وقوة العقيدة، وضبط العلم يهلك العبد، ولهذا حذر من هذه المسألة قال: ولكن يسلم ويمضي ولا يمس القبر. وهذه المسألة طويلة لكن أنصحكم في هذا بكتابين وإن كانا ليس لمالكيين، لكنهما نقل نصوص المالكية:

الأول: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، هذا لا يليق بطالب علم ومحب للعقيدة أن لا يقرأه.

الثاني: تلميذه ابن عبد الهادي في كتابه العظيم الصارم المنكي في الرد على السبكي، كلاهما مجلد متوسط.

الأول تقرأه، ثم تقرأ الثاني، لأن عبارة الثاني أقفل، كتاب قاعدة جليلة وعليه شروح من المعاصرين، لكن طالب العلم الذي عنده أصول يقرأ الكتاب الأصل ولا يحتاج شرحاً وتكلم ونقل نصوص الإمام مالك رحمه الله تعالى في هذا الباب.

التحذير من البدع وأهلها

[وإياكم البدع، وأهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته، وعلمه وقدرته ولا يسكتون، عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولعن الله عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل.

ومحال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد، والكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهمٍ والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، أما الكلام في دين الله وفي الله ﷻ فالسكوت أحب إلي منه، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل، ومن طلب الدين بالكلام تزندق.

وإذا رأيت صاحب كلام يمشي في الهواء فلا تأمنن ناحيته، ولا تثقن به، ولم يكن شيء من هذه الأهواء على عهد النبي ﷺ ولا أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ومن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة: ٣ فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً.

ولا يؤخذ العلم من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، وهذا العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم، فقد أدركت في هذا المسجد سبعين وأشار بيده إلى مسجد رسول الله ﷺ كلهم يقول قال فلان، قال رسول الله ﷺ فلم آخذ عنهم شيئاً ولو أن أحدهم ائتُمن على بيت مال لكان به أمين لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن.

ولا تمكن زائغ القلب من أذنيك فإنك لا تدري ما يعلق من ذلك ولقد سمع رجل من الأنصار من أهل المدينة شيئاً من بعض أهل القدر فعلق قلبه به فكان يأتي إخوانه الذين استصحبهم فإذا نهوه قال كيف بما علق قلبي؟ لو علمت أن الله راضٍ أن ألقي نفسي من فوق هذه المنارة لفعلت. والدنو من الباطل هلكة، والقول في الباطل يصد عن الحق ولا خير في شيء من الدنيا بفساد دين المرء ولا مرؤته.

ولا بأس على الناس فيما أحل الله لهم، وأهل الأهواء بئس القوم لا تسلم عليهم ولا تجالسهم إلا أن تغلظ عليهم، ولا يعاد مريضهم، ولا تحدث عنهم الأحاديث، واعتزالهم أحب إلي، وما آية في كتاب الله أشد على أهل الأهواء من هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦ فأي كلام أبين من هذا وهذه الآية لأهل القبلة.

وإذا علمت أن الإمام من أهل الأهواء فلا تصلي خلفه، ولا يُصلى خلف أحد من أهل الأهواء، ومن صلى خلف أهل البدع فلا إعادة عليه، ولا تجوز شهادة أهل البدع ولا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم.

وإياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنة، ولا ينبغي الإقامة بأرض يُعمل فيها بغير الحق والسب للسلف قال أبو الدرداء لمعاوية ﷺ حين قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا. قال معاوية: ما كنت أرى بهذا بأساً. قال أبو الدرداء: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتخبرني عن رأيك لا أساكنك بأرض أنت فيها، فخرج عنه فالناس كانوا يخرجون من الكلمة، وهذا يقيم على العمل بغير الحق والسب للسلف وقد قال الله ﷻ: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ النساء: ١٠٠ .

ولا يصلى خلف الإباضية، ولا يصلى على موتاهم، ولا تتبع جنائزهم ولا تعاد مرضاهم وترك السكنى معهم في بلادهم أحب إليه، والإباضية والحرورية وأهل الأهواء كلهم أرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قُتلوا].

إذاً هنا ذكر جملة من الكلام ومن القواعد العظيمة في باب الاعتقاد المتعلقة بأهل البدع والأهواء ومعاملتهم فذكر وحذر من علم الكلام أولاً وتحذيره من علم الكلام لأن علم الكلام هو الذي أفسد ديانة الناس، وأصل علم الكلام إنما هو مستقى من فلسفة اليونان، فإنهم استبدلوا الشريعة بتلك القواعد اليونانية والقواعد الفلسفية التي خربوا بها دين الناس، ولهذا قال: بأن هؤلاء القوم ميزتهم أنهم لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة.

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز وكان الإمام مالك يعجبه هذا الكلام: قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا، وعن بصر نافذ كفوا، وهم على كشفها كانوا أولى. إلى آخر ما قال.

ثم ذكر من أهل البدع عمر بن عبيد وهو رأس من الرؤوس المعتزلة لأنه هو ممن ابتدع علم الكلام، واختُلف في سبب تسمية علم الكلام على أقوال كثيرة أقربها أن المقصود به أنه كلام يُعارض به الشرع يدعي أصحابه العقل هذا علم الكلام، أو أن يُعرف بأن يقال المقصود بعلم الكلام هو تقرير العقيدة بالاعتماد على قواعد الفلاسفة التي هي كلام وليس شرعاً.

ثم ذكر قاعدة عظيمة نحن ننقلها عن غيره ممن هم دونه وهي له قال: ومحال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد. هذه كلمة عظيمة وعبر هنا بالتوحيد، ونحن ننقل عن من هو دونه بكثير والإمام مالك قال هذا الكلام.

ثم ذكر أن الكلام مكروه عنده، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، أي أهل المدينة يكرهونه لأنه ليس تحته عمل وإنما هو كلام، ولهذا قال جماعة من السلف: الجهل بالكلام علم والعلم بالكلام جهل. وأهل الكلام أقواب متحيرون يعتقدون الأمر اليوم ويكفرون به غداً، ولهذا قال بعدها: ومن طلب الدين بالكلام تزندق.

ثم قال: إذا رأيت صاحب كلام يمشي في الهواء فلا تأمنن ناحيته ولا تثقن به. ولهذا يقول الأخضري المالكي في نظم له يقول:

إذا رأيت الشخص قد يطير وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف على حدود الشرع فإنما مستدرج وبدعي

لأنه تلبس بأمر لا فائدة فيه، ولهذا أهل الكلام ضيعوا أعمارهم فيما لا ينفع ولهذا ندم كبراؤهم ومعظموهم وقال قائلهم: وما استفدنا فيه غير قيل وقال. يعني لم يستفيدوا إلا القيل والقال، ولم يقرروا شيئاً، ولم يستفيدوا أمراً.

ثم ذكر أن هذه الأهواء لم تكن في عهد النبي ﷺ وهذا دليل قوي أنك إذا نظرت إلى أمر قل لصاحبه هل كان على عهد الأئمة؟ إن قال لا، فلا خير فيه ولهذا لما ناقش ابن عباس الخوارج أول ما قال لهم وقد قدم عليهم وكانوا نحو من خمسة آلاف لما نظر إليهم قال كلمة هي قاعدة عظيمة قال: لا أرى فيكم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ. هذه كفيلة بأنكم على ضلال والصحابة على حق.

لأنه لا يمكن أن يكون الحق في غير صف الصحابة، قد يخطئ الصحابي أما أن يخطئ جميعهم ويجمعوا على خطأ هذا محال كوناً وشرعاً، ولهذا قال: لا أرى فيكم أحد من أصحاب النبي ﷺ. دليل هذا في السنة، النبي ﷺ قال: «**أصحابي أمنة للناس فإذا ذهب أصحابي أتى الناس ما يوعدون**» فدل على أن غيرهم ليسوا أمنة للناس.

ثم ذكر خطر البدع والأهواء، والأهواء هي ما يهواه العبد ويقدمه على الشرح والهوى إذا غطى العقل هلك العبد، لهذا يقول ابن دريد في مقصورته يقول:

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

إذا الهوى غطى العقل هلك الإنسان، ولهذا ترى من أهل البدع من يفعل أفعال لم يكن يفعلها من قبل لأن العقل قد سُلب منه والعياذ بالله، لهذا يقول أبو العباس الهلالي في نصيحته:

وتابع السنة واحذر البدع فالطرق قد سُدت على أهل البدع

سد عليهم الطريق لأنهم سلكوا طريقا معوجة.

وهنا ما جاء بعده في كلام الإمام مالك فقال: لا يُأخذ العلم عن صاحب هوى. ثم قال: انظر عمن تأخذون دينكم. ثم ذكر مثالاً عظيماً بأنه يعلم أقواماً صالحين ذكر منهم سبعين وأشار بيده وأنهم كانوا في مسجد النبي ﷺ غير أنه لا يأخذ منهم لماذا؟ لأنهم ليسوا أصحاب شأن لماذا؟ لأن العلم والحديث يُشترط في صاحبه أمران:

الأمر الأول: العدالة وهذه متحققة في هؤلاء القوم.

الأمر الثاني: الضبط وهذا لم يتحقق فيهم، ولهذا شروط الحديث الصحيح:

أوله الصحيح وهو ما اتصل إسناده ولم يشذ أو يعل

يرويه عدل ضابط عن مثله معتمد في ضبطه ونقله

وهذا داخل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ القصص: ٢٦ فهم كانوا أمناء ولم يكونوا أقوياء وهذا لا يكفي في علم الحديث لأن الأمانة وحدها لا تعصمك من الخطأ والوهم، والقوة وحدها لا تعصمك من التلبيس والتدليس في دين الله إذ لا دين لك ولا أمانة.

ولهذا إذا طلبت عن إنسان العلم ابتعد عن من كان فسقه ظاهراً فإنه مع الأيام يعديك وإن كان قوي العلم، اللهم إذا احتجت إلى علم خاص، في زمن خاص، في ظرف خاص لكن احرصوا على أن تطلبوا على من له شيء من الديانة فإن الفاسق يضر بك.

كالذي تذهب عنده وهو لا يهمه وقت الصلاة، ولا تهمه الصلاة ولا سمته سمت طلاب علم، ولا حاله ولا كلامه، هذا يضرك لأنك ستقول أن صاحب هذا العلم يفعل هذا فهذا يضر، لكن هذا لا يكفي نحتاج أمانة وتقوى، لكن نحتاج أيضاً ضبطاً للعلم.

ثم حذر من أمر وهو تمكين زائغ القلب من أذنيك لأن البدع ـ يا إخوة ـ شديدة التعلق بالقلب وذكر هذه القصة العظيمة أن بعضهم علق به أمر فكان يأتي إخوانه الذين استصحبهم فإذا نهوه قال كيف بما علق قلبي لو علمت أن الله راضٍ أن ألقي نفسي من فوق هذه المنارة لفعلت. لماذا تمنى الموت؟ لأن البدعة استحكمت من قلبه فلم يستطع إخراجها.

قال أبو بكر بن العربي عن شيخه أبي حامد الغزالي: شيخنا أبو حامد ابتلع الفلاسفة فلما أراد أن يقيئهم ما استطاع. بالرغم من أن أبا حامد الغزالي كتب كتابه تهافت الفلاسفة، ورد عليه ابن رشد الحفيد صاحب بداية المجتهد في كتابه تهافت

التهافت لكنه مع هذا لم يخرج أبو حامد الغزالي رحمه الله من الفلاسفة لأن البدعة إذا دخلت في القلب يصعب إخراجها.

ولهذا من فضل الله على الحدث كما قال السلف: أن ينشأ أول ما ينشأ على صاحب سنة. هذا فضل عظيم لأن البدعة إذا استحكمت شأنها خطير جداً لأن البدعة من باب الشبهات، والشبهات يشتبه فيها الحق بالباطل فيظن أنه على حق وهو على باطل.

ثم ذكر أن الدنو من الباطل هلكة، وأن الذي يداني الباطل يهلك ويضيع لماذا؟ لأن الباطل كما قلت لكم من باب الشبهات وهذه الشبهات تلبس على العبد.

ثم ذكر أن لا خير في شيء من الدنيا بفساد دين المرء ولا مرؤته، ولا بأس على الناس فيما أحل الله لهم، هنا نستفيد من كلام الإمام مالك على ما يذكره العلماء اتفاقاً بل هو أمر اتفق عليه المرسلون وهو أن الضرورات الخامس أعظمها حفظ الدين، الضروريات الخمس في المقاصد الشريعة مما اتفق عليه الأنبياء جميعاً كما قال الشاطبي في الموافقات حفظ الدين، والعقل، والمال، والنفس، والفرج، أو البضع أو النسل بحسب ما يُعبر عنه.

أعظمها حفظ الدين قطعاً ولهذا النبي ﷺ كان يقول: «**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا**» ولهذا يقول بعض الأئمة:

أبني إن من الرجال بهيمة ... في صورة الرجل السميع المبصر

فطـــن لكـــل مصـــيبة في مالـــه وإذا أصـــيب بدينـــه لم يشـــعر

يقول القحطاني في نونيته:

الـدين رأس المـال فاستمسـك بـه فضـياعه مـن أعظـم الخسـران

وقد كتبت كتاباً في هذا سميته **تسلية المؤمنين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين**، إذا سلم الدين سلم لك كل شيء، وإذا ضاع الدين ضاع منك كل شيء لأن الكفار يفتدون يوم القيامة بالدنيا جميعاً ولا ينفعهم ذلك.

ثم ذكر أن أهل الأهواء بئس القوم وأنه لا يُسلم عليهم ولا يجالسون ولا يُسمع إليهم، ولا تُعاد مرضاهم، وهذا من بالغ تحذيره رحمه الله من أهل البدع لأنهم أهل زيغ لكن آثار السلف من حيث العموم في معاملة أهل البدع إنما تأخذ أيضاً بسياقها لأن السنة كانت عندهم قوية والبدعة ضعيفة فقمعها يكون بهذا.

أما إذا كنت في بلد أنت الضعيف وهم الأقوياء فعدم تسليمك عليهم ينفعهم ولا يضرهم بل يضرك ربما أنت، لكن إذا رأيت أن أحداً إذا مكنته من أذنيك سينفخ وسينفث فيك سموماً عظيمة فاعتزله وابتعد عنه، والجأ إلى الله جل وعلا في حفظ ذلك الدين الذي أعطاك الله تعالى.

ثم ذكر آية هي من أشد ما يكون على أهل الأهواء: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦ قال السلف منهم ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ـ أي الذين اجتمعوا على الحق ـ وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة.

ثم ذكر رحمه الله مسألة أخرى، وهي مسألة الصلاة وراء أهل البدع فذكر أن الأصل أن لا يصلى وراءهم، لكن لو صليت لا تعيد لأن الصلاة صحيحة ولهذا جرى أهل السنة على هذا ودونوه في عقائدهم بأن الصلاة جارية وراء كل بر وفاجر.

ثم ذكر أن شهادتهم تُرد لأن المبتدع لا يؤمن بأن يغير ما يعتقد لينصر مذهبه ومن هذا رد من رد من أئمة الحديث والمصطلح رواية المبتدع قالوا لأنه إذا روى ما يؤيد دينه وبدعته فهذا لا يُقبل، وإذا روى ما لا يؤيد بدعته قُبل وهذا القول يُستدرك عليه بأنه إذا ثبتت فيه العدالة والضبط يُقبل حديثه.

ومسألة تأييد البدعة بما يقول مسألة تحتاج بحثاً فالمبتدع قد يؤيد بدعته بما يشاء من الحديث ثابتة بالاتفاق ومع هذا لا نردها، ولهذا المدار على ثبوت الحديث أم لا أما النظر إلى ما يؤيد أو لا يؤيد هذا أمر يصعب، لأنك قد تقبل الحديث وهو لا يؤيد بدعته اليوم لكن بدعته تغيرت غداً، فهل نرد الحديث؟ لا نرده فالمسألة يصعب ضبطها، ولهذا الحافظ ابن حجر رد هذا في نزهة النظر وهو قول معروف مشهور.

ثم ذكر أموراً وهي عدم الإجارة في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم وهو ادعاء علم الغيب بالنظر في النجوم.

ثم حذر من أصحاب الرأي وأنهم أعداء السنن وذكر قاعدة عظيمة وهي أنه لا ينبغي الإقامة بأرض يُعمل فيها بغير الحق، والسب للسلف، والإمام أبو بكر ابن العربي المالكي كان يرى الهجرة من بلد ليس فيه علماء، فكيف ببلد يُسب فيه الحق

ويُرد فيه الباطل، ثم ذكر كلاماً لأبي الدرداء لما خرج بدينه لما سمع لا يرضاه في أمر وقال: لا أساكنك بأرض أنت فيها. وهذا خصومة وقعت بينهم.

ثم قال الإمام مالك رحمه الله: فكانوا يخرجون من الكلمة وهذا ـ أي حال من جاء بعدهم ـ يقيم على العمل بغير الحق والسب للسلف.

والله تعالى يقول: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ النساء: ١٠٠ وبعدها: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ النساء: ١٠٠ أي: من مات وهو يريد الهجرة إلى الخير وإن لم يدرك الأرض التي يريد فإن الله قد كتب أجره.

ثم ذكر طائفة من أهل البدع كانت منتشرة عندهم وهم الإباضية والإباضية موجودون الآن ولهم دولة ترعى مذهبهم، وهم خوارج من جهة تقرير العقيدة لكن ليس عندهم ما يتعلق بالقتال، فإنهم لا يقاتلون وليسوا دمويين كالخوارج الإرهابيين المعروفين لكن عقيدتهم تطابق فهم يُكفرون صاحب الكبيرة وينكرون الرؤية مع شذوذ فقهي غير خفي، وعمدتهم على كتاب صاحبه مجهول وهو مسند الربيع الذي يعتمدون عليه، والرد عليهم معروف.

وبعض الناس يهون من الخلاف مع الإباضية لأن الإباضية ليسوا دمويين وليسوا أصحاب حدة لكنها عقيدة منحرفة، فعدم حدتهم وعدم انحرافهم في باب القتال والسيف على المسلمين شيء، لكن أن تسكت عن عقيدتهم الباطلة هذا أمر آخر، فالإمام مالك رحمه الله يرى الرد على هؤلاء.

ثم قال: والإباضية والحرورية وهم قريبون. في أصول الاعتقاد يشتركون ويختلفون هذه تقاتل، وهذه لا تقاتل.

قال: وأهل الأهواء كلهم أرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قُتلوا. وهذا من باب معاملة أهل البدع.

هذا ما يسر الله جل وعلا من التعليق على هذه القواعد، وحقها مزيد بيان لكن فيما ذُكر إن شاء الله تعالى إشارة.

أسأل الله جل وعلا أن يرحم الإمام مالك رحمه الله رحمة واسعة وأن يجزي الجامع خيراً على هذا الجمع الطيب، وأن ينفعنا بما قلنا وسمعنا، وأن يكتبه لنا في عليين، وأن لا يجعل حظنا من هذا الكلام مجرد النقل والتقرير، وإنما يجعله عقيدة نلقى بها الله جل وعلا، ونلقى ثوابها يوم المعاد. هذا والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

الفهرس

المقدمة ٣
من هم أهل السنة؟ ٨
مصادر التلقي ١٣
التحذير من الشبهات ١٩
التحذير من اتباع الرأي المذموم ومخالفة السنة ٢٤
التمسك بالسنة ورد الآراء المذمومة والقياسات ٣٠
دواء الهوى هو الوحي ٣٤
ماذا ينبغي على طالب العلم؟ ٣٦
ترك الخصومات ٣٨
عاقبة المراء وطريقة التعامل مع أهله ٤١
الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص ٥٢
مسألة الأسماء والأحكام ٥٩
الشهادة للمعين ٦٦
القرآن كلام الله غير مخلوق ٦٨

إمرار أحاديث الصفات..... ٧١
صفة العلو لله..... ٧٦
رؤية الله عزوجل..... ٨٤
إنكار الرؤية..... ٨٧
تكليم الله لموسى..... ٨٨
الميزان..... ٩٠
السمع والطاعة لولي الأمر..... ٩٤
الإيمان بالقضاء والقدر..... ٩٩
اعتقاد المسلم في الصحابة..... ١٠٦
حكم سب النبي أو التنقص فيه ﷺ..... ١٢٠
الغلو في النبي ﷺ..... ١٢٥
التحذير من البدع وأهلها..... ١٢٧